30
درسا تربويّا
للحاجِ والمعتمر

دليل شامل لتنمية الروح والسلوك
أثناء الرحلة الإيمانية



عدنان بن سلمان الدريويش

الدريويش ، عدنان بن سلمان
٣٠ درسًا تربويًا للحاج والمعتمر. / عدنان بن سلمان الدريويش -
ط١. .- الهفوف ، ١٤٤٨هـ
١٣٣ ص ؛ ..سم

رقم الإيداع: ١٤٤٨/٧١٦
ردمك: ٩-٦٦٢٤-٠٦-٦٠٣-٩٧٨

٣٠ درسًا تربويًا

للحاج والمعتمر

دليل شامل لتنمية الروح والسلوك

أثناء الرحلة الإيمانية

عدنان بن سلمان الدريويش

الأحساء – المملكة العربية السعودية

وللحصول على نسخة الكترونية من الكتاب

تجدونها في حساباتي على المواقع الالكترونية

إهداء

إلى /

لو كان يهدى للإنسان قيمته، لأهديتك الدنيا وما فيها، ولكني أهديك هذا الكتاب ،،، عرفانا ومحبة .

سائلا المولى لك الفائدة ،،،

من /

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي جعل الحج ركنًا من أركان الإسلام، وموسمًا للطاعة والإيمان، وميدانًا لتربية النفوس وتهذيب الأخلاق، والصلاة والسلام على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أتم الله به النعمة، وأكمل به الدين، وترك أمته على المحجة البيضاء، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد، فإن كثيرًا من الناس ينظرون إلى الحج والعمرة على أنهما مجموعة من الأعمال والشعائر التي يؤديها المسلم ثم تنتهي بانتهاء الرحلة، بينما المتأمل في نصوص القرآن والسنة يدرك أن الحج مدرسة إيمانية متكاملة، وجامعة تربوية عظيمة، أراد الله منها أن تعيد تشكيل القلب، وتصحيح السلوك، وبناء الشخصية المسلمة.

فالإحرام ليس مجرد لباس يُرتدى، بل درس في التجرد من زخارف الدنيا، والتلبية ليست كلمات تُردد، بل إعلان متجدد للتوحيد والاستسلام لله، والطواف ليس دورانًا حول الكعبة فحسب، بل دوران القلب حول محبة الله وتعظيمه، والسعي بين الصفا والمروة يوقظ معاني الأخذ بالأسباب مع صدق التوكل على رب الأرباب، والوقوف بعرفة يعلم العبد الانكسار والافتقار إلى الله، بينما مزدلفة فيها تربية على التأمل والسكينة، والجمرات تذكر بعداوة الشيطان وضرورة مجاهدته، ويأتي الحلق والتقصير ليغرس في النفس معاني التواضع والتجرد لله تعالى.

يا أخي، إن الحج في نظر الناس رحلة عمر، لكنه في حقيقته رحلة قلب، ينتقل فيها الإنسان من الغفلة إلى الذكر، ومن الانشغال بالدنيا إلى التعلق بالآخرة، ومن ضعف الإرادة إلى قوة العزيمة، ومن الأنانية إلى الشعور بالأمة الإسلامية الواحدة، وفي كل شعيرة من شعائر الحج والعمرة كنوز من الدروس التربوية، والرسائل الإيمانية، والمعاني السلوكية التي يحتاجها المسلم في حياته كلها، لا في أيام الحج وحدها، قال الله تعالى: {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} (الحج، ٢٧-٢٩).

ومن هنا جاءت فكرة هذا الكتاب (٣٠ درسًا تربويًا للحاج والمعتمر)، والذي جمعت فيه ثلاثين درسًا تربويًا مستنبطًا من مشاهد الحج والعمرة ومواقفهما، بهدف مساعدة الحاج والمعتمر على تجاوز الجانب الشكلي للمناسك إلى فهم مقاصدها، واستثمار آثارها في إصلاح النفس، وتقوية الإيمان، وتحسين العلاقة بالله تعالى وبالناس.

ولست أدعي أنني أتيت بكل ما في الحج من أسرار ودروس، فمعاني هذه العبادة أعظم من أن تُحصى، ولكنها خواطر تربوية وإشارات إيمانية أحببت جمعها وتقريبها للقارئ الكريم؛ لعلها تعينه على أن يعيش الحج بقلبه قبل جوارحه، وأن يحمل آثار هذه الرحلة المباركة معه بعد عودته إلى أهله وبلده.

أسأل الله الكريم أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به الحجاج والمعتمرين، وأن يرزقنا جميعًا حجًا مبرورًا، وسعيًا مشكورًا، وذنبًا مغفورًا، وأن يجعلنا ممن إذا تعلم عمل، وإذا عمل أخلص، وإذا أخلص قُبل منه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

جمعه وأعده

عدنان بن سلمان الدريويش

الأحساء ١٤٤٨هـ

الفهارس

كيف نستفيد من هذا الكتاب؟

أخي الحاج الكريم، أختي المعتمرة الكريمة، بين يديك صفحات لا تتحدث عن أحكام المناسك الفقهية للحج والعمرة، بل صفحات تحاول أن تكشف لك بعض المعاني التربوية والإيمانية التي تحملها هذه الرحلة المباركة، فهذا الكتاب لم يُكتب ليُقرأ قراءة عابرة، بل ليكون رفيقًا لك قبل الحج والعمرة وأثنائهما وبعدهما، يساعدك على أن تعيش المناسك بروحها ومقاصدها، لا بمجرد صورها وأعمالها الظاهرة.

ولتحقيق أكبر فائدة من هذا الكتاب، أقترح عليك ما يلي:

أولًا: اقرأ بقلب المتعلم لا بقلب المتصفح، حاول أن تتعامل مع كل درس على أنه رسالة خاصة لك، وأن تسأل نفسك بعد قراءته:

ماذا يريد الله مني أن أتعلم من هذه الشعيرة؟.

ما التغيير الذي أحتاج إليه في حياتي؟.

كيف أحول هذا الدرس إلى سلوك عملي؟.

فالعبرة ليست بكثرة المعلومات، وإنما بصدق التأثر والعمل.

ثانيًا: اقرأ الدرس قبل أداء الشعيرة، إذا كنت مقبلًا على الحج أو العمرة، فاقرأ الدرس المتعلق بكل شعيرة قبل أدائها، اقرأ عن الإحرام قبل أن تُحرم، واقرأ عن التلبية قبل أن ترفع صوتك بها، واقرأ عن الطواف قبل أن تبدأ أشواطك حول الكعبة، فذلك يعينك على استحضار المعاني الإيمانية أثناء العبادة.

ثالثًا: قف مع الأسئلة التي يطرحها عليك قلبك، قد تمر عليك بعض المواقف والمشاعر أثناء الحج فتتذكر ما قرأته في هذا الكتاب، عندها لا تكتفِ بالقراءة، بل حاسب نفسك، وتأمل حالك، واسأل قلبك:

هل تغيرت حقًا؟، وهل تعلمت الصبر وازددت تواضعًا؟، وهل اقتربت من الله أكثر؟، فالحج الناجح هو الذي يغير الإنسان من الداخل.

رابعًا: دوّن الخواطر والفوائد، اجعل معك دفترًا صغيرًا أو سجلًا خاصًا تكتب فيه ما يفتح الله عليك به من تأملات ومواقف ودروس أثناء الحج، فقد يفتح الله عليك بمعنى عظيم لا تجده في كتاب، لكنه يولد من صدق التأمل وحضور القلب.

خامسًا: اجعل كل درس مشروعًا عمليًا، فبعد كل درس اسأل نفسك:

ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟، فإذا قرأت درسًا في التوحيد فجدد علاقتك بالله، وإذا قرأت درسًا في الصبر فدرّب نفسك عليه، وإذا قرأت درسًا في حسن الخلق فاجعل

له أثرًا في تعاملك مع الناس، فالهدف من الكتاب ليس المعرفة فقط، بل التغيير والإصلاح.

سادسًا: لا تجعل الاستفادة مرتبطة بالحج فقط، مع أن هذه الدروس مستنبطة من مناسك الحج والعمرة، إلا أن معانيها يحتاجها المسلم طوال حياته، فالتوكل، والصبر، والإخلاص، والشكر، والتواضع، وحسن الخلق، ووحدة الأمة، والاستقامة بعد الطاعة، كلها معانٍ لا تنتهي بانتهاء الحج، ولهذا حاول أن تعود إلى هذه الدروس بين حين وآخر لتجدد أثرها في قلبك.

سابعًا: شارك الفائدة مع غيرك، إذا وجدت درسًا أثّر فيك أو قصة أيقظت قلبك، فانقلها إلى أهلك وأولادك وأصدقائك، فرب كلمة صادقة تغير حياة إنسان، ورب فائدة تنشرها تكون سببًا في أجر مستمر لك بعد الحج بسنوات طويلة.

وأخيرًا، تذكر أن الحج رحلة أيام معدودة، أما الدروس المستفادة منه فهي زاد العمر كله، فاحرص أن لا تكون عودتك من الحج عودة جسد إلى وطنه فقط، بل عودة قلب إلى ربه، ونفس إلى فطرتها، وروح إلى طريق الاستقامة.

أسأل الله أن يجعل هذه الصفحات نافعة لك، وأن يرزقك حجًا مبرورًا، وسعيًا مشكورًا، وذنبًا مغفورًا، وأن يجعل ما تتعلمه من هذه الدروس نورًا يهديك في دنياك وآخرتك.

الباب الأول

دروس ما قبل الحج والعمرة

الدرس الأول: لماذا اختارك الله من بين الملايين؟

سؤال يهز النفس قبل الجسد: لماذا اختارني الله من بين هذا العدد الهائل من البشر لأصل إلى بيته الحرام؟، فكم من مسلم يتمنى الحج ولم يستطع؟، وكم من قلب يشتاق لرؤية الكعبة ولم يُكتب له الوصول؟، وكم من إنسان كان يخطط للحج ثم حالت بينه وبين ذلك ظروف أو أمراض أو آجال؟، ثم اختارك الله أنت من بين هؤلاء، وفتح لك الطريق، ويسر لك الأسباب، إنها نعمة عظيمة تحتاج إلى تأمل طويل، وشكر عميق، وانكسار صادق بين يدي الله، فما أعظم تلك اللحظة التي يقف فيها الحاج أو المعتمر أمام الكعبة ليؤدي مناسك الحج والعمرة.

أيها الحاج، إن الحج والعمرة اصطفاء قبل أن يكون سفرًا، فكم من أناس يملكون المال ولم يُكتب لهم الحج؟، وكم من أصحاء أقوياء حالت بينهم وبين البيت الحرام موانع كثيرة؟، ولهذا فإن وصولك إلى مكة ليس مجرد قرار شخصي أو ترتيب دنيوي فقط، بل توفيق واصطفاء ورحمة من الله، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ (فاطر: ٣٢)، فإذا كان الله قد اصطفى أقوامًا للطاعة، فإن من أعظم صور الاصطفاء في العبادات أن يفتح الله لعبده باب أداء المناسك في المشاعر المقدسة.

أيها المبارك، استشعر نعمة الدعوة إلى بيت الله، فالحاج ليس مجرد زائر لمكان عظيم، بل هو ضيف على الله، وقد ورد في الحديث: " وفدُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ ثلاثةٌ: الغازي، والحاجُّ،

والمعتَمِرُ" رواه النسائي، وقال صلى الله عليه وسلم: " الحجَّاجُ والعمَّارُ وفدُ اللهِ، إن دعوه أجابهم، وإن استغفَروه غفَر لهم" رواه ابن ماجة، لذا تأمل هذا المعنى الجميل: الله دعاك فأجبت، فما أعظمها من كرامة، وما أجلّها من نعمة، ففي لحظة طوافك بالكعبة، أو حين ترفع يديك في عرفات، كم من محروم في العالم يتمنى مكانك، ربما كان فقير لا يملك النفقة، أو مريض أقعده المرض، أو كبير سنّ أنهكه التعب، أو إنسان كان يؤجل الحج حتى أدركته الموانع، ولهذا كان بعض السلف إذا رأى الكعبة بكى وقال: "اللهم لا تجعلني من المحرومين"، لأن الحرمان الحقيقي ليس حرمان المال فقط، بل حرمان القرب من الله.

يا أخي، إذا شعرت أن الله اختارك لهذه الرحلة، فاملأ قلبك شكرًا له، وتذكر قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (إبراهيم: ٧)، لأن الشكر الحقيقي لا يكون باللسان فقط، بل يكون: بحسن العبادة، وتعظيم الشعائر، والمحافظة على الطاعة، وعدم إفساد الحج بالغفلة أو المعاصي، فمن شُكر نعمة الحج أن يعود الإنسان بعدها أفضل حالًا وأقرب إلى الله، فالعبد مهما عمل، فلن يدخل أبواب الخير إلا بتوفيق الله ورحمته، كان عبد الله بن عمر إذا دخل الحرم خفض صوته وخشع قلبه تعظيمًا للمكان والشعيرة، لأنه يعلم أنه في موطن اصطفاه الله للوصول إليه.

أيها الحاج، إذا وصلت إلى الحج، لا تغتر بنفسك، ولا تقل: أنا وصلت بجهدي، أو بمالي، أو بدوري، بل قل كما قال الصالحون: هذا من فضل ربي، قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (النحل: ٥٣)، وتواضع وأنت بين المسلمين، فلا مكان للكبر في الحج، ولا

للعجب بالنفس، واسأل نفسك دائمًا: ماذا يريد الله مني بعد أن اختارني؟، فلعل الله أراد أن يطهّر قلبك، أو يفتح لك باب توبة، أو يقرّبك منه، أو يغيّر حياتك كلها، فلا تجعل هذه الرحلة مجرد أيام وتنتهي، بل اجعلها بداية عهد جديد مع الله.

فيا ضيف الرحمن، قف لحظة وتأمل، هذه النعمة العظيمة التي تستحق الحمد والشكر والانكسار بين يدي الله، وهي اختيارك من بين الملايين لتكون حاجًا أو معتمرًا، لذا فاشكر الله بقلبك، واحمده بلسانك، وأظهر أثر هذه النعمة في طاعتك واستقامتك وأخلاقك، وتذكر دائمًا: أن أعظم المحرومين ليس من حُرم الوصول إلى مكة فقط، بل من وصل إليها ثم عاد بقلب غافل لم يعرف قيمة هذا الاصطفاء العظيم.

- وقفة مع النفس

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس الثاني: أهمية المال الحلال في الحج

أمر الله عباده بأكل الطيبات، وجعلها سببًا لقبول الأعمال، فمن أعظم المعاني التي ينبغي أن يستحضرها الحاج والمعتمر قبل أن يشرع في رحلته المباركة أن هذه العبادة العظيمة لا تقوم على الجسد وحده، ولا على الكلمات وحدها، بل تقوم قبل ذلك على أساس متين من الصدق والإخلاص والمال الحلال، فالحج ليس مجرد تذكرة سفر، ولا مجرد انتقال إلى المشاعر المقدسة، بل هو رحلة إلى الله، ومن أراد الوصول إلى الله فليتزود بما يحب الله ويرضى، فكم من حاج بدأت رحلته للحج والعمرة من سنوات، حينما اختار أن يكون رزقه حلالًا، وكسبه طيبًا، وماله بعيدًا عن الظلم والغش والربا وأكل حقوق الناس، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ (المؤمنون: ٥١)، فجمع الله في هذه الآية بين طيب المطعم وصلاح العمل، وكأن العمل الصالح يحتاج إلى أرض طيبة ينبت فيها، وأعظم تلك الأرض المال الحلال.

أيها الحاج، إن المال الحلال مفتاح لقبول العبادة، كما جاء في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم: " ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطيلُ السَّفَرَ أشعَثَ أغبرَ، يَمُدُّ يَدَيه إلى السَّماءِ، يا رَبِّ، يا رَبِّ، ومَطعَمُه حَرامٌ، ومَشرَبُه حَرامٌ، ومَلبَسُه حَرامٌ، وغُذِيَ بالحَرامِ، فأنَّى يُستَجابُ لذلك؟!" رواه مسلم، تأمل هذا المشهد المؤثر: سفر، ودعاء، وانكسار، ورفع لليدين، ومع ذلك مُنع من كمال الإجابة بسبب المال الحرام، فإذا كان الحرام يؤثر في الدعاء، فكيف

لا يؤثر في سائر العبادات؟، وقد روي عن بعض العلماء أنهم كانوا يعدّون تحري المال الحلال قبل الحج من أعظم أسباب بركة الرحلة وقبولها، فما أجمل أن يضع الحاج قدمه في الحرم وقلبه مطمئن أن نفقته من مال طيب، لم يخالطه ظلم ولا شبهة.

أيها المبارك، إن من الأخطاء التي يقع فيها بعض الناس أن يتساهلوا في الديون أو حقوق الآخرين من أجل الحج، والأصل أن المسلم يحرص على براءة ذمته، وأن يؤدي الحقوق إلى أهلها، وألا يحمّل نفسه ديونًا تثقل كاهله من أجل عبادة لم تجب عليه أصلًا إذا لم يكن مستطيعًا لها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧)، فالاستطاعة شرط من شروط الحج، أما غير المستطيع فالله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

يا أخي، إن المال الحلال يورث صاحبه: طمأنينة في القلب، وبركة في العمر والرزق، وقبول الدعاء بإذن الله، وصفاء العبادة، وبركة في الحج والعمرة، أما المال الحرام فإنه وإن كثر ظاهره، فإنه يمحق البركة ويورث القلق والاضطراب، قال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ (البقرة: ٢٧٦)، فليس المطلوب أن يتحرى المسلم الحلال قبل الحج فقط، بل أن يجعل ذلك منهج حياة، فمن ذاق لذة المال الطيب، وراحة الضمير، وبركة الرزق، لن يرضى أن يلوث صحيفته بمال مشبوه أو حق مغصوب، فالحج مدرسة تعلم المسلم أن أعظم الزاد إلى الله هو التقوى، ومن التقوى أن يكون مطعمه ومشربه ونفقته من الحلال.

فيا ضيف الرحمن، قبل أن تتهيأ للإحرام، فتش في مصدر مالك، وراجع حقوق العباد، وأدِّ ما عليك من الديون والالتزامات، واحرص على أن تكون نفقتك طيبة نقية، فإن الله كريم يحب الكرماء، وطيب لا يقبل إلا طيبًا، وتذكر دائمًا أن المال الحلال ليس مجرد وسيلة للوصول إلى مكة، بل هو مفتاح من مفاتيح القبول، وبركة ترافقك في رحلتك إلى الله، ونور يضيء طريقك في الدنيا والآخرة.

- **وقفة مع النفس**

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس الثالث: صحّح نيتك قبل سفرك

حين يتهيأ القلب للحج والعمرة، وتُشدّ الرحال، تبدأ أعظم رحلة في حياة المسلم: رحلة إلى الله، إلى البيت الحرام، فهي ليست مجرد مسافة تُقطع، بل هي مسيرٌ من ظاهرٍ إلى باطن، ومن عادةٍ إلى عبادة، ومن غفلةٍ إلى يقظة، هنا تتجلّى أعظم قضيةٍ يغفل عنها كثير من الحجاج والمعتمرين: تصحيح النية، قال الله تعالى:{وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} (البينة،٥).

أيها المعتمر، النية هي روح العمل، والميزان الخفي الذي يُحدّد قيمة السعي، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إنَّما الأعمالُ بالنِّيّاتِ وإنَّما لِكلِّ امرئٍ ما نوى " رواه البخاري، حديثٌ عظيم رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، جعله العلماء أساسًا من أسس الدين، فكم من حاجٍ رجع بلا أجرٍ كامل، لأن نيته شابها رياء أو سمعة، وكم من معتمرٍ عاد وقد كُتبت له الأجور مضاعفة، لأنه خرج بقلبٍ صادقٍ لا يريد إلا وجه الله.

إن تصحيح النية قبل السفر ليس أمرًا شكليًا يُقال باللسان، بل هو عملٌ قلبيّ عميق، يحتاج إلى مراجعةٍ صادقة، فالحاج والمعتمر عليه أن يسأل نفسه: لماذا أذهب؟ أهو طلبًا لرضا الله، أم طلبًا لمدح الناس؟ أهو شوقًا للبيت الحرام، أم رغبةً في لقب "حاج" يسبق اسمه؟، هل سفره للبيت الحرام سياحة؟، أو من أجل التسوق، أو طلبًا لكثرة المتابعين على المواقع الالكترونية.

أيها الحاج، كان السلف الصالح يعتنون بالنية عنايةً عظيمة، يُروى أن أحدهم همَّ بالحج، فلما شعر في قلبه بشيءٍ من حب الظهور، أجّل سفره عامًا كاملًا، حتى يُنقّي نيته، لأنهم أدركوا أن الطريق إلى الله لا يُقطع بالأقدام فقط، بل يُقطع أولًا بتصفية القلوب، ومن أجمل ما يُروى في هذا الباب، قصة رجلٍ خرج للحج، فلقي عالمًا في الطريق، فسأله: "لِمَ تحج؟" قال: "لأزور بيت الله"، قال: "وهل قصدت رب البيت؟" فسكت الرجل طويلًا، ثم بكى، وقال: "والله ما تفكرت فيها!" فعاد يُجدد نيته، ويُصلح قصده، فكانت تلك اللحظة بداية حجٍ مختلف.

أيها المبارك، إن النية الصادقة تُحوّل المشقة إلى لذّة، والزحام إلى عبادة، والتعب إلى قربى، فالحاج الذي يصحح نيته يرى في كل خطوةٍ إلى الحرم عبادة، وفي كل طوافٍ حياة، وفي كل دعاءٍ نجاة، أما من غابت عنه النية الصالحة، فإنه لا يرى إلا المشقة فقط، والضيق في صدره، ويثقل عليه الطريق، ولنا في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أسمى مثال؛ فقد حجّ حجة الوداع مُعلنًا التوحيد، خالصًا لله، لا يبتغي إلا مرضاته، قال في تلبيته: "لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك"، إنها كلمات تُعلن تجديد النية في كل لحظة، وتذكيرٌ دائم بأن القصد لله وحده.

يا أخي، إن من أعظم ثمرات تصحيح النية أن العمل القليل يُبارك فيه، وأن الزلات تُغفر، وأن القلب يخرج من الرحلة وقد تغيّر حقًا، فليست العبرة بعدد المرات التي زرت فيها

البيت، بل بمدى التغيير الذي أحدثه هذا السفر في داخلك، لذا صحح نيتك قبل السفر بالتالي:

اجلس مع نفسك جلسة صدق، واكتب سبب سفرك بوضوح، ثم استحضر أنك ذاهب للقاء الله لا لمجرد أداء شعيرة، وأكثر من الدعاء: اللهم اجعل عملي خالصًا لوجهك، وتذكر أن الناس لا يملكون لك نفعًا ولا ضرًا، وأن القبول من الله وحده، ثم اقرأ في فضائل الإخلاص، وتأمل في عاقبة الرياء.

فيا ضيف الرحمن، يا من عزمت على الحج أو العمرة، تذكّر أن أول خطوة في الطريق ليست عند باب المطار، بل في أعماق قلبك، فإن صلحت نيتك، صلح طريقك، وقُبل عملك بإذن الله، وإن اختلّت، فقد تخسر أعظم فرصةٍ في حياتك، لذا اجعل نيتك لله، يكن سفرك كله لله.

- وقفة مع النفس

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس الرابع: تعلّم المناسك قبل السفر

حين يعزم المسلم على شدّ الرحال إلى بيت الله الحرام، فالسفر لن يكون مجرد انتقالٍ من بلدٍ إلى بلد، بل هو عبورٌ من حالٍ إلى حال؛ من غفلةٍ إلى حضور، ومن عادةٍ إلى عبادة، من هنا كانت أولى خطوات الطريق: أن يتعلّم الحاج والمعتمر كيف يعبد ربَّه على بصيرة، فإن العبادة بلا علم، عبادة ناقصة، وقد تكون فاسدة، وهي طريق إلى البدع والأهواء والضلال، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف، ١١٠)، وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : " مَنْ عَمِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ " (الزهد للإمام أحمد).

أيها الحاج، لقد وجَّه النبي صلى الله عليه وسلم أمته توجيهًا واضحًا، في حديث جابر بن عبدالله حين قال: " رَأيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَرمي على راحِلَتِه يَومَ النَّحرِ، ويقولُ: لتَأخُذوا مَناسِكَكُم؛ فإنِّي لا أدري لَعَلِّي لا أحُجُّ بَعدَ حَجَّتي هذه" رواه مسلم، فكانت هذه الكلمة منهجًا لا شعارًا؛ دعوةً للتعلُّم قبل العمل، وللتأسي قبل الاجتهاد، فالحج والعمرة عبادة عظيمة، لكن دقائقها كثيرة، ومواطنها متعددة، والخلل فيها قد يذهب بأجرٍ عظيم أو يُنقص من كمال القبول.

يا أخي، كم من حاجٍّ وقف في عرفة وقلبه مشتت، لأنه لم يعرف حقيقة هذا الركن العظيم!، وكم من معتمرٍ طاف وسعى، لكنه لم يفقه أسرار ما يفعل، فخرج من نسكه بجسدٍ مُتعب وروحٍ لم تروَ، لأن تعلّم المناسك ليس ترفًا علميًا، بل هو عبادة سابقة للعبادة، وتمهيدٌ لصحة القصد وإتقان العمل، يُروى أن رجلًا حجّ مع رفقةٍ له، فلما عادوا قالوا له: كيف كان حجك؟، قال: تعبتُ كثيرًا!، قالوا: وماذا تعلّمت؟، قال: تعلّمت أن أتعلم قبل أن أذهب!، لقد أدرك هذا الحاج بعد المشقة أن العلم كان سيختصر عليه الطريق، ويحوّل تعبه إلى لذةٍ ومعنى.

أيها المبارك، كان بعض السلف إذا عزم على الحج جلس قبل سفره أيامًا يتعلم ويسأل، حتى إذا وصل إلى المشاعر كان كأنه يسير على نور؛ يعرف ماذا يفعل؟، ولماذا يفعل؟، وكيف يعبد الله بقلبٍ حاضر؟، فالحاج والمعتمر المتعلّم لا يضطرب عند الزحام، ولا يتوتر عند اختلاف الناس، لأنه يملك ميزانًا يرجع إليه، فهو يعرف ما الركن الذي لا يُترك؟، وما الواجب الذي لا يُجبر؟، وما السنّة التي يُؤجر عليها؟، فهذا العلم يمنحه سكينةً داخلية، فيؤدي نسكه بروحٍ مطمئنة، لا بقلبٍ خائفٍ مرتبك، قال الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء،٧)، وفي هذا إشارةٌ إلى أن الجهل ليس عذرًا مع القدرة على التعلّم، خاصةً في العبادات العظيمة كالحج والعمرة.

يا أخي، ليس المطلوب أن يكون الحاج عالمًا، ولكن عليه أن يأخذ من العلم ما يُقيم به عبادته: كتعلُّم أركان الحج والعمرة وواجباتهما، ومعرفة الأخطاء الشائعة لتجنبها، وحضور

دورةٍ مختصرة أو الاستماع لشرحٍ موثوق، وحملُ كتيبٍ أو تطبيقٍ يرشده أثناء النسك، لأن تعلُّم المناسك هو مفتاح القبول، وسُلّم الوصول، وجسر العبور من ظاهر العبادة إلى حقيقتها.

فيا ضيف الرحمن، يا من تنوي زيارة بيت الله، اجعل نيتك أن تعبده كما يحب، لا كما اعتدت، تعلّم قبل أن تُحرِم، وافهم قبل أن تطوف، وتدبّر قبل أن تسعى، فإن أجمل ما في الحج والعمرة ليس كثرة الحركة، بل صدق الاتباع، فمن أراد حجًّا مبرورًا، وسعيًا مشكورًا، فليبدأ رحلته من هنا: من نور العلم، قبل أن يطأ أرض الحرم.

- **وقفة مع النفس**

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس الخامس: الحج ليس رحلة سياحية

يخطئ من يظن أن العمرة والحج مجرد رحلة سفر، أو تجربة سياحية، أو انتقال بين المشاعر والمشاهد الجميلة، فالحج والعمرة في حقيقتهما عبادة عظيمة، ومدرسة إيمانية عميقة، ورحلة يتقرب فيها العبد إلى الله بالتعب، والصبر، والإخلاص، واتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فالحاج لا يذهب ليرفّه عن نفسه، بل يذهب ليطهّر قلبه، ولا يسافر ليرى الأماكن التاريخية فقط، بل ليعيش معاني العبودية والخضوع لله، ولهذا كان الحج من أعظم العبادات التي يظهر فيها صدق الإنسان مع ربه، قال الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٦)، تأمل هذه الكلمة العظيمة: "لله"، أي أن الحج كله ينبغي أن يكون لله؛ في النية، وفي التعب، وفي الدعاء، وفي الصبر، وفي كل خطوة من خطوات الطريق.

أيها الحاج، لو أراد الله لجعل الحج سهلًا بلا تعب ولا زحام ولا مشقة، لكنه سبحانه جعل فيه شيئًا من المعاناة؛ لأن النفوس تتربى بالصبر والمجاهدة، فالحاج يترك راحته، وينفق ماله، ويتحمل الحر والزحام وطول المشي، وكل ذلك طلبًا لرضا الله، قال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها، عندما منعها الحيض من التحلل، وحزنت أن ترجع بنسك والناس بنسكين: "ولَكِنَّها على قَدرِ نَصَبِكِ " رواه مسلم، فكل تعب يصبر عليه الحاج بإخلاص يتحول عند الله إلى أجر عظيم.

أيها المبارك، من المؤلم أن ينشغل بعض الناس أثناء الحج بكثرة التصوير، وتتبع المظاهر، والانشغال بالهواتف، حتى يضيع عليهم حضور القلب، فالكعبة لم تُبنَ لتكون مجرد منظر يُلتقط، بل لتوقظ التوحيد في القلب، وعرفات ليست مكانًا للسياحة، بل ميدان دموع ودعاء وتوبة، كان السلف رحمهم الله إذا حجوا انشغلوا بذكر الله والخشوع، لأنهم يعلمون أن هذه الأيام قد لا تتكرر.

يا أخي، إن روح الحج الحقيقية هو الإخلاص لله، فقد يتعب المسلم كثيرًا في الحج، لكن العمل لا يُقبل إلا إذا كان خالصًا لله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة: ٥)، فالحاج الصادق لا يريد مدح الناس، ولا أن يُذكر بينهم، بل يريد مغفرة الله ورضاه، لأن طريق القبول يكون بمتابعة السنة، فالحج عبادة عظيمة لا تُؤخذ بالأهواء أو العادات، بل تُؤدى كما فعلها النبي صلى الله عليه وسلم، وقد قال عليه الصلاة والسلام: " خُذوا عني مناسِكَكم " رواه النسائي، فالحاج يتعلم أن العبادة الحقيقية تقوم على أمرين: الإخلاص لله، ومتابعة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يُروى أن رجلًا جاء إلى الحج وكان كثير الاهتمام بالراحة والرفاهية، فلما رأى الزحام والتعب بدأ يتضجر ويشتكي، فقال له أحد الحجاج: "يا أخي، لو كان الطريق إلى الجنة بلا تعب، لتسابق الناس إليها بلا صدق"، فسكت الرجل طويلًا، ثم قال: "صدقت، جئت أطلب الأجر، فكيف أكره الطريق إليه؟"، فالحاج حين يتحمل المشقة لله، ينكسر

شيء من الكِبر والترف داخل نفسه، فهو ينام أحيانًا في أماكن بسيطة، ويمشي طويلًا، ويصبر على الزحام، فيتعلم أن السعادة ليست في الترف، بل في قربه من الله.

فيا ضيف الرحمن، تذكر دائمًا أن الحج ليس رحلة سياحية تُقاس براحة الجسد، بل عبادة عظيمة تُقاس بحضور القلب وصدق الإخلاص، لذا فاصبر على التعب، واحتسب المشقة، وأخلص النية لله، واتبع سنة نبيك صلى الله عليه وسلم في كل نسك، واسأل نفسك دائما بعد الحج: هل تغيّر قلبي؟، وهل أصبحت أقرب إلى الله؟، وهل تعلّمت الإخلاص؟، وهل ازددت حبًا للسنة والطاعة؟، فالحج الناجح هو الذي يترك أثره في القلب بعد انتهاء الرحلة.

- وقفة مع النفس

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس السادس: الاستعداد النفسي للزحام

حين يتهيأ الحاج والمعتمر لزيارة بيت الله، يظنّ كثيرٌ منهم أن الاستعداد يقتصر على تجهيز الحقائب وترتيب الأوراق والتذاكر، وينسى أن أعظم ما يُحمَل في هذه الرحلة ليس في اليد، بل ما كان في القلب وهو: زادُ الصبر، فالزحام في المشاعر ليس عارضًا طارئًا، بل هو جزءٌ من المشهد الإيماني الذي تُختبر فيه النفوس، وتُمحّص فيه الأخلاق، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمۡنًا﴾ (البقرة، ١٢٥)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ " رواه البخاري.

أيها الحاج، عند الطواف وفي السعي، وعند رمي الجمرات، تتقارب الأجساد، وتضيق المساحات، وتختلف الطباع، هناك قد يُدفَع الإنسان، أو يُؤخَّر، أو يُمنع مما يشتهي، هنا يظهر السؤال الحقيقي: كيف يتصرف قلبك قبل جسدك؟، قال الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة،١٩٧)، إنها وصيةٌ إلهية بأن يكون الحاج في أعلى درجات الانضباط الأخلاقي، خاصة في مواطن الاحتكاك، فليس الصبر مجرد تحمّلٍ صامت، بل هو عبادةٌ عظيمة، كما قال الله عنها: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر،١٠)، ففي الزحام، تتحول اللحظات الصغيرة إلى فرصٍ كبيرة: بأن تكفّ أذاك عن غيرك، وأن تعذر الجاهل والمتعب، وأن تبتسم بدل أن تغضب، وأن تُؤثر غيرك على نفسك.

يا أخي، يُحكى أن رجلًا حجّ، وكان سريع الغضب، فلما اشتد الزحام عند الطواف، دفعه أحد الناس دون قصد، فالتفت غاضبًا وكاد أن يصرخ، ثم تذكّر أنه في عبادة، فقال في نفسه: "إن كنت لا أصبر هنا، فأين أصبر؟"، فابتسم، وقال: "اللهم كما جمعتنا في هذا المكان، فاجمع قلوبنا على طاعتك"، يقول بعد عودته: "كان ذلك الموقف بداية تغيّرٍ في حياتي، تعلّمت فيه أن أملك نفسي قبل أن أطلب من الآخرين أن يراعوني".

جاء في السيرة النبوية أن النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع كان مثالًا للصبر والرفق، فقد أُتي بأسئلة كثيرة يوم النحر من أصحابه، فكان الناس يقولون: فعلتُ كذا قبل كذا، فما كان منه إلا أن قال: " افعَلْ ولا حَرَجَ" رواه البخاري، فقد كان صلى الله عليه وسلم ييسّر ولا يعسّر، ويعلّم الأمة أن روح العبادة تقوم على السكينة، لا على التوتر والتشدد.

أيها المبارك، توقّع الزحام حتى لا تتفاجأ به، ثم درّب نفسك على كظم الغيظ في مواقف الحياة اليومية، واستحضر نية التعبد بالصبر، لا مجرد تحمّل الواقع، وأكثر من الذكر، فهو يُسكّن القلب عند الاضطراب، وتذكّر أن كل من حولك جاء يرجو ما ترجوه: رحمة الله ومغفرته .

فيا ضيف الرحمن، إن الزحام الذي تراه بعينك، هو في حقيقته اختبارٌ لما في قلبك، فإذا ضاق صدرك، فأوسع أفق إيمانك، وقل: هذه لحظة أُربّي فيها نفسي لله، ولا تنسَ أن

تحسّن خُلقك في الزحام، فقد يكون أعظم أجرًا من كثيرٍ من الأعمال الظاهرة، وتذكر أن صبرك في الزحام ليس ضعفًا، بل قوةٌ داخلية، وعبادةٌ راقية، وعلامةُ نضجٍ إيماني.

- **وقفة مع النفس**

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس السابع: أهمية رد المظالم قبل السفر

ليست الرحلة إلى بيت الله انتقالًا من مكان إقامتك فحسب، بل هي انتقالٌ في القيم، وارتقاءٌ في الضمير، ومن أعظم ما ينبغي أن يتهيأ به الحاج والمعتمر قبل سفره: ردُّ المظالم، وتصحيح العلاقة مع الآخرين، فكما يُطهِّر الحاج والمعتمر جسده من الأوساخ، ويُحسِن ترتيب زاده ومتاعه، فإنه أولى أن يُنقّي قلبه من حقوقٍ عالقة، وذممٍ لم تُؤدَّ، وخصوماتٍ لم تُصفَّ، قال صلى الله عليه وسلم: " مَن كانَت عِندَه مَظلِمةٌ لأخيه فليَتَحَلَّلْه مِنها؛ فإنَّه ليس ثَمَّ دينارٌ ولا دِرهَمٌ، مِن قَبلِ أن يُؤخَذَ لأخيه مِن حَسَناتِه، فإن لم يَكُنْ له حَسَناتٌ أُخِذَ مِن سَيِّئاتِ أخيه فطُرِحَت عليه" رواه البخاري.

أيها المعتمر، إن العبادة التي يُراد بها وجه الله تنقص في الأجر مع ظلم العباد، حتى حذّر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك أعظم تحذير، فقال في الحديث الذي رواه أبو هريرة: " أتَدرونَ ما المُفلِسُ؟ إنَّ المُفلسَ من أُمَّتي مَن يأتي يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيامٍ، وزكاةٍ، ويأتي وقد شتَم هذا، وقذَفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفكَ دمَ هذا، وضربَ هذا، فيُعْطَى هذا من حَسناتِه، وهذا من حسناتِه، فإن فَنِيَتْ حَسناتُه قبلَ أن يُقضَى ما عليهِ، أُخِذَ من خطاياهم، فطُرِحَتْ عليهِ، ثمَّ طُرِحَ في النَّارِ" رواه مسلم. فأيُّ خسارةٍ أعظم من أن يبذل العبد جهده في العبادة، ثم تُؤخذ حسناته لحقوقٍ أهملها، أو مظالم لم يُصلحها؟!، قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} (النحل،٩٠)، والعدل أن تبدأ بنفسك، حين تعترف

بخطئك، ثم تردّ الحقوق إلى أهلها، وتطلب العفو عمّن ظلمتهم، لأن القلب المثقل بالخصومات لا يذوق حلاوة الطاعة، والضمير المرهق لا يهنأ بالقرب من الله.

أيها الحاج، ومن القصص المؤثرة، أن رجلًا عزم على الحج، فلما اقترب موعد سفره تذكّر دَيْنًا قديمًا لرجلٍ فقير، كان قد أخّر سداده دون عذر، فذهب إليه قبل السفر، وسلّمه حقه كاملًا، ثم اعتذر منه، فخرج الحاج بعدها بقلبٍ خفيف، لا يحمل في صدره إلا الدعاء، ولا في ذمته إلا الطاعة.

ويُروى أن أحد الصالحين كان إذا أراد الحج، طاف على من يعرف ومن لا يعرف، يقول: "من كان لي عنده مظلمة فليأخذها، ومن أسأت إليه فليسامحني"، فكانوا يعجبون من شدّة حرصه، فيقول: "أخشى أن أقف بين يدي الله وفي رقبتي حقوق لم تُؤدَّ".

أيها المبارك، إن ردّ المظالم ليس فقط بإرجاع المال، بل يشمل كل حقٍ للعباد، سواء كان ماليًا، أو معنويًا: كإزالة ما في القلوب من ضغائن، والتسامح مع من أسأت إليه، والاعتذار عن الكلمات الجارحة، فالحاج الذي يخرج بقلبٍ صافٍ، يعيش معنى الأخوّة في أبهى صورها، لأنه يرى في وجوه الناس الرحمة، لا الخصومة، ولنا في هدي النبي صلى الله عليه وسلم أعظم القدوة؛ فقد كان أحرص الناس على أداء الحقوق، حتى إنه في حجّة الوداع أوصى صحابته بقوله: "فإنَّ دِماءَكُم وأموالَكُم وأعراضَكُم وأبشارَكُم علَيكُم حَرامٌ، كَحُرمةِ يَومِكُم هذا، في شَهرِكُم هذا، في بَلَدِكُم هذا، ألا هل بَلَّغتُ؟ قُلنا: نَعَم، قال: اللهُمَّ

اشهَدْ" رواه مسلم، هذا فيه تأكيد شديد على حرمة الظلم، وأن يحرص المسلم على أن يلقى الله وليس لأحدٍ عنده حق.

يا أخي، إذا أردت أن ترد المظالم إلى أهلها قبل السفر: فتّش في ذاكرتك عن: مالٍ، أو كلمةٍ، أو موقفٍ، واسأل نفسك: هل ظلمت أحدًا؟، ثم بادر بردّ الحقوق المالية دون تأخير أو تبرير، واعتذر بصدق لمن أسأت إليه، ولا تستصغر أثر الكلمة، وسامح من ظلمك، فالعفو يحرر قلبك قبل أن يرضي غيرك، ثم أكثر من الدعاء.

فيا ضيف الرحمن، يا من قصدت بيت الله، تذكّر أنك ذاهبٌ إلى ملكٍ عادل، لا يضيع عنده حق، ولا دعوة لمظلوم، كما قال صلى الله عليه وسلم:" اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ" رواه البخاري، وقال: " ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْوَالِدِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ" رواه أبو داود، فإن أردت القبول، فابدأ بالعدل، وإن أردت الصفاء، فابدأ بردّ الحقوق، لذا فاجعل رحلتك صافية، يكن الوصول أصدق وأجمل.

- وقفة مع النفس

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس الثامن: اختيار الصحبة الصالحة

حين يشدّ الحاج والمعتمر رحاله إلى بيت الله، فإن اختياره لرفقة الطريق ليس أمرًا عابرًا، بل قرارٌ يصوغ شكل الرحلة وروحها، فالسفر الطويل يكشف الطباع، ويُظهر خبايا النفوس، ويجعل الإنسان أكثر حاجةً لمن يعينه على الثبات، ويذكّره إذا غفل، ويشدّ أزره إذا فتر، قال صلى الله عليه وسلم: " المرءُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم مَن يُخاللُ" رواه أبوداود، قال النووي رحمه الله في المجموع: "يستحبُّ له أن يطلبَ رفيقًا موافقًا راغبًا في الخيرِ كارهًا للشرِّ، إن نسي ذكَّره، وإن ذكر أعانَه، وإن تيسرَ له مع هذا كونه عالمًا، فليتمسك به، فإنه يمنعه علمه وعمله من سوءٍ ما يطرأ على المسافرِ من مساوئ الأخلاق والضَّجر، ويعينه على مكارمِ الأخلاقِ ويحثُّه عليها".

أيها الحاج، عند الزحام والتعب، وفي لحظات الانتظار، يظهر أثر الرفيق جليًّا؛ فإما أن يكون معينًا على الذكر، مُذكّرًا بالصبر، باعثًا على الطمأنينة، وإما أن يكون سببًا في التوتر، ومثيرًا للضيق، وصارفًا عن روحِ العبادة، ولذلك لم تكن الصحبة في الإسلام شأنًا ثانويًا، بل أصلٌ من أصول التربية، قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ (الكهف،٢٨)، فهذا أمرٌ بالملازمة، لا بمجرد المصاحبة؛ لأن القلوب تتأثر، والطباع تنتقل، جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في بيان أثر الصحبة:" إنَّما مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ، وجَلِيسِ السُّوءِ، كَحامِلِ المِسْكِ، ونافِخِ الكِيرِ، فَحامِلُ المِسْكِ، إمَّا أنْ يُحْذِيَكَ،

وإِمَّا أنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وإِمَّا أنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، ونافِخُ الكِيرِ، إِمَّا أنْ يُحْرِقَ ثِيابَكَ، وإِمَّا أنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً " رواه البخاري، فالصحبة الصالحة تُعطيك من طيبها وإن لم تطلب، وتترك في نفسك أثرًا طيبًا ولو لم تشعر، وفي السفر، يتضاعف هذا الأثر؛ لأن الإنسان يكون في حالة تجرّد من عاداته اليومية، فيتأثر بمن حوله أكثر من أي وقتٍ آخر، فكم من إنسانٍ خرج بقلبٍ مثقل، لأن رفقته كانت سببًا في تضييعه لأوقاتٍ ثمينة.

أيها المبارك، عليك أن تختار رفيقك، الذي يكون: صاحب خلقٍ حسن، لا يضيق عند الشدّة، حريص على العبادة، لا يثقل عليك بالطاعة، متفهّم لظروف السفر، متعاون غير متطلب، يقدّر قيمة الوقت في الحرم.

فيا ضيف الرحمن، إنك في الحرم لا تسير وحدك، بل تُحاط بقلوبٍ تؤثر فيك وتتأثر بك، فاختر من يرفعك إذا فترت، لا من يثقل عليك إذا نشطت، واجعل نيتك في صحبته أن تتعاونا على الوصول، وإلى رضوان الله، لا مجرد الوصول إلى المكان، فليست العبرة أن تبلغ مكة برفقةٍ كثيرة، بل أن تبلغ الله برفقةٍ صالحة.

- وقفة مع النفس

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس التاسع: تعلّم الذكر وآداب السفر

حين يهمّ الحاج أو المعتمر بالسفر إلى بيت الله، فإنه لا يخرج إلى رحلةٍ عادية، بل إلى عبادةٍ تمتد من لحظة خروجه من بيته وحتى يعود إليه، ولهذا لم يترك الإسلام المسافر بلا توجيه، بل أحاطه بآدابٍ تربي القلب، وأذكارٍ تحفظ الروح، حتى يكون الطريق إلى مكة طريقًا عامرًا بالإيمان قبل الوصول إلى الحرم، لأن السفر امتحان للنفس والأخلاق، ففيه يتعب الجسد، ويضيق الوقت، وتختلف الطباع، ولذلك كان من أجمل ما يتزود به المسافر: حسن الخلق، وسعة الصدر، والرفق بالناس، قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: "الإحسان إلى الرفقة في السفر أفضل من العبادة القاصرة، لا سيما إن احتاج العابد إلى خدمة إخوانه" (كتاب لطائف المعارف)، وكان كثير من السلف يشترط على أصحابه في السفر أن يخدمهم اغتنامًا للأجر، فالمؤمن في سفره ليس فقط عابدًا يؤدي مناسك، بل قدوةٌ تمشي بين الناس.

أيها الحاج، ومن آداب السفر: اختيار الصحبة الصالحة التي تُعين على الطاعة، وتوديع الأهل بالكلمة الطيبة والدعاء، وردّ المظالم والتحلل من الحقوق قبل السفر، والرفق بالرفقة وعدم إثقالهم بالطلبات أو الغضب، والمحافظة على الصلاة والذكر مهما تغيّرت الظروف.

يُحكى أن رجلين خرجا للحج؛ أحدهما كان كثير الذكر، هادئ النفس، يبتسم عند التعب، ويقول دائمًا: نحن في عبادة، أما الآخر فكان سريع التذمر، يغضب من الزحام وتأخر الطريق، وفي إحدى المحطات تعطلت الحافلة لساعات، فبدأ الناس يضجرون، أما الرجل الصالح فجمع رفقته وبدأ يردد أذكار السفر ويدعو الله، فتحوّل التوتر إلى سكينة، يقول صاحبه بعد العودة: تعلمت أن الإيمان الحقيقي لا يظهر في الراحة، بل في الطريق المتعب.

أيها المبارك، ما أجمل أن يسير الحاج ولسانه يلهج بذكر الله، فيتحول الطريق الطويل إلى عبادة مستمرة، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ركب دابته للسفر قال: "سُبْحانَ الَّذِي سخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلى ربِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ في سَفَرِنَا هذا البرَّ والتَّقوى، ومِنَ العَمَلِ ما تَرْضى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ علَيْنا سفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، وَالخَلِيفَةُ في الأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وكآبةِ المَنْظَرِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ في المالِ والأهلِ وَالوَلَدِ، وإِذا رجَعَ قَالهُنَّ وَزَادَ فيهنَّ: آيِبونَ، تَائِبونَ، عَابِدُون لِرَبِّنَا، حَامِدُونَ" رواه مسلم.

يا أخي، تنوعت الأذكار في السفر وشملت عدة مواضع ، منها: التكبير عند المرتفعات، والتسبيح عند النزول، والإكثار من الاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ودعاء النزول في المكان، وهذه الأذكار ليست كلماتٍ تُقال فقط، بل رسائل طمأنينة للقلب، يشعر معها المسافر أن الله معه، يحفظه ويرعاه.

فيا ضيف الرحمن، كان السلف يعدّون الذكر وحسن الأدب في السفر جزءًا من العبادة؛ لأن الطريق إلى الله لا يُقطع بالأجساد وحدها، بل بالأخلاق والذكر والصبر، لذا اجعل قلبك مليئًا بالذكر والأدب والتسامح، كما ملأت حقيبتك باحتياجاتك، واحمل معك أذكار الطريق كما تحمل متاعك، فإنها زاد المسافر، وأنس الغريب، وسكينة القلب.

- **وقفة مع النفس**

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس العاشر: طهّر قلبك بالتوبة

عندما تُزف البشرى بالسفر إلى الديار المقدسة، وعندما تُحجز المقاعد وتُشدّ الرحال إليها، هناك أمرٌ أعظم ينبغي أن يبدأ به الحاج والمعتمر قبل الانطلاق وهو: تطهير القلب بالتوبة، فليست الرحلة إلى بيت الله انتقالًا بالجسد فحسب، بل هي انتقالٌ بالقلب من درن الذنوب إلى صفاء النفوس، ومن ثقل المعصية إلى خفة الطاعة، لأن القلب هو موضع نظر الله العظيم، كما قال صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ اللهَ تعالى لَا ينظرُ إلى صُوَرِكُمْ وَأمْوالِكُمْ ، ولكنْ إنَّما ينظرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم" رواه مسلم، فكيف يليق بمن يقصد بيت الله أن يحمل في قلبه أوزارًا لم يتب منها، أو أحقادًا لم يطهّرها، أو ذنوبًا لم يُراجع نفسه فيها؟!.

أيها الحاج، إن التوبة ليست كلمة تُقال، بل هي عودةٌ صادقة إلى الله، ندمٌ على ما مضى، وعزمٌ على عدم العودة، وردٌّ للمظالم إلى أهلها، قال الله تعالى: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (النور،٣١)، وقال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} (البقرة،٢٢٢)، فالتوبة هنا طهارةٌ للقلب، كما أن الوضوء طهارةٌ للجسد، ولنا في سير الأولين نماذج مضيئة في هذا الباب.

يُروى أن رجلًا كان يؤذي جاره، ثم عزم على العمرة، فتذكّر ظلمه لجاره، فطرق بابه معتذرًا، وقال: "لا أريد أن ألقى الله وأنا أحمل في قلبي شيئًا عليك"، فسامحه الجار،

وانطلق الرجل إلى العمرة بقلبٍ خفيف، وقد ذاق لذّة التوبة قبل أن يذوق لذّة الطواف، فكانت رحلته بعد ذلك مختلفة؛ خشوعٌ في الطواف، ودموعٌ في السعي، وانكسارٌ عند الدعاء.

أيها المعتمر، إن الذنوب تثقل القلب، وتجعل العبادة جسدًا بلا روح، فربّ طائفٍ حول الكعبة وقلبه بعيد، وربّ ساعٍ بين الصفا والمروة وقلبه مشغول، أما من طهّر قلبه بالتوبة، فإنه يعيش كل شعيرةٍ وكأنها لقاءٌ جديد مع الله، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق رجعَ كيومِ ولدتهُ أمُّه " رواه البخاري، إن هذا الوعد العظيم لا يتحقق إلا لمن دخل هذه العبادة بقلبٍ صادق، وتوبةٍ نصوح، وعزمٍ على التغيير، فالتوبة قبل السفر تُعينك على العبادة، فهي بداية التحوّل، لا مجرد خطوة عابرة، ومن ذاق لذّة الإنابة قبل الوصول، وصل بقلبٍ حاضر، وروحٍ خاشعة.

يا أخي، اسأل نفسك: كيف تُطهّر قلبك قبل الحج والعمرة؟، وللجواب على السؤال عليك بالتالي:

اجلس مع نفسك جلسة محاسبة، واستعرض ذنوبك بصدق دون تبرير، ثم أقبل على الله بكثرة الاستغفار، واستشعر الندم الحقيقي، ولا تنس أن تردّ المظالم إلى أهلها، واطلب العفو ممن أسأت إليهم، وسامح من ظلمك، فالقلب النقيّ أقدر على الخشوع، وأخيرا أكثر من الدعاء: اللهم طهّر قلبي كما يُطهّر الثوب الأبيض من الدنس.

فيا ضيف الرحمن، يا من عزم على زيارة بيت الله، اعلم أن الكعبة ليست بحاجةٍ إلى خطواتك، ولكن قلبك هو الذي يحتاج إلى هذه الرحلة، فإن طهّرته قبل السفر، طهّرك الله في ذهابك وإيابك، وكتَب لك قبولًا لا يزول، فابدأ الرحلة من قلبك يكن الوصول أصدق وأجمل.

- **وقفة مع النفس**

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الباب الثاني

دروس أثناء الحج والعمرة

الدرس الحادي عشر: استشعار ضيافة الرحمن

الرحلة إلى بيت الله هي انتقالُ القلب قبل الجسد إلى مائدة الكرم الإلهي، فالحاجُّ والمعتمر ضيفُ الله قبل أن يطأ أرض الحرم، قال صلى الله عليه وسلم: " الحجَّاجُ والعمَّارُ وفدُ اللهِ، إن دعوه أجابهم، وإن استغفَروه غفَر لهم " رواه ابن ماجة، فكلمة وفد تُشعرك أنك لست مسافرًا عاديًا، بل مُكرَّمًا مدعوًّا، تُفتح لك أبوابٌ من الرحمة، ويُهيَّأ لك من العطاء ما لا يخطر على قلب بشر، وإذا صحّ فهم الضيافة، استقام الأدب، وخفَّت الأثقال، وارتفع المعنى.

أيها الحاج، إن معنى الضيافة أن يتهيّأ الضيف لمضيفه قبل أن يلقاه؛ فيختار أحسن ما عنده، ويتأدّب في حضوره، ويصون لسانه وقلبه، فإذا كان المضيف هو الله، فكيف يكون الاستعداد؟، يكون: بأن تُقبل بقلبٍ خفيف من أوزار الذنوب، وأن تُجدّد توبتك، وأن تستحيي أن تُدعى إلى الكريم وقلبك مشغول عنه، وأن تُصحّح نيتك، فلا تطلب لقبًا ولا صورة، بل وجه الله وحده، وأن تُحسن ظنّك بربك، فالضيف على قدر ظنّه يُكرم، قال صلى الله عليه وسلم: " إنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ قال: أنا عِندَ ظَنِّ عَبدي بي؛ إن ظَنَّ بي خَيرًا فله، وإن ظَنَّ شَرًّا فله" رواه أحمد، وقال تعالى: {ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ} (الحج،٣٢)؛ وتعظيم الشعائر يبدأ من تعظيم المُضيف، واستشعار أنك داخلٌ في ضيافةٍ ربّانية.

أيها المبارك، من فهم أنه ضيفٌ، تغيّر سلوكه وخلقه فهو: يصبر على الزحام؛ فلا يضيق صدره في دار مضيفه، ويلين مع الناس؛ لأنهم شركاؤه في الوفادة، ويكثر من الذكر والدعاء؛ فموائد الضيافة تُجاب فيها الدعوات، ويغضّ بصره ولسانه؛ لأن أدب الضيافة يسبق لذّة الضيافة، ولنا في هدي النبي صلى الله عليه وسلم مثالٌ جليّ؛ فقد أعلن التوحيد في تلبيته، وجعلها نشيد الضيف بين يدي مضيفه: "لبيك اللهم لبيك"؛ تلبيةٌ تحمل معنى الإجابة والانقياد، وكأنها تقول: "حضرتُ يا ربّ، فأكرمني بالقرب منك ".

أيها المعتمر، يُروى أن رجلًا عزم على الحج، فكان كلما همَّ بالسفر قال لنفسه: إلى من تمضي؟، فإذا قال: إلى الله، استحيا أن يخرج وفي قلبه خصومة، فطاف على من يعرف، يستسمحهم، ويردّ حقوقهم، فلما وصل، وجد لذّةً في الدعاء لم يذقها من قبل، وقال: "الآن فقط فهمت أني دخلت في ضيافة الكريم"، وشاب آخر خرج للعمرة، فلما ضاق صدره من الزحام، تذكّر قول شيخه: "أنت ضيف، فلا تُسيء الأدب"، فغيّر نظرته؛ حتى صار يبتسم، ويعين الضعيف، ويؤثر غيره، يقول: "تحوّلت المشقة إلى سكينة، وكأن المكان يحتضنني"، هكذا يكون فهمنا للضيافة: يُبدّل الإحساس قبل أن يُبدّل المكان.

يا أخي، للضيافة ثمرات على الضيف ان يستحضرها: كانشراح الصدر، لأنك في كنف الكريم، وحضور القلب، فالضيف لا يغفل عن مضيفه، ورجاء القبول، إذ كيف يردّ الكريم وفده؟، وتحوّل السلوك: أدبًا، ولينًا، وإحسانًا.

والسؤال هنا: كيف تدخل في الضيافة بحق؟، والجواب: جدّد نيتك صباح مساء، وقل: اللهم إني قاصدٌ بيتك ابتغاء وجهك، ثم قدّم توبةً صادقة، وردّ مظالمك، وصفِّ قلبك من الضغائن، وتعلّم مناسكك؛ فالضيف المؤدّب يعرف آداب المجلس، وأكثر من الدعاء في الطريق، واعزم على التغيير بعد العودة؛ فالضيف الكريم يحمل من مجلس مضيفه أثرًا دائمًا.

فيا ضيف الرحمن، يا من شددت الرحال، تذكّر أن أعظم ما في الرحلة ليس ما تراه العين، بل ما يعيشه القلب، فأنت ضيفُ الله قبل أن تصل، فإذا دخلت الضيافة بهذا المعنى، خرجت منها بقلبٍ جديد، فأحسن أدبك يُحسن الله كرامتك.

- **وقفة مع النفس**

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس الثاني عشر: دمعة عند أول نظرة إلى الكعبة

الكعبة ليست مجرد بناءٍ تُبصره العيون، بل هي لحظةٌ تهتزّ لها الأرواح، وتلين عندها القلوب، وتذوب فيها مشاعر الشوق والخشوع، فكم من إنسانٍ سار سنواتٍ طويلة يحلم بتلك اللحظة: لحظة أن تقع عيناه لأول مرة على بيت الله الحرام، إنها لحظاتٌ في العمر لا تُشبه غيرها، لحظاتٌ لا تستطيع الكلمات أن تصفها كاملة، لأن القلب هو الذي يتحدث فيها قبل اللسان، فحين يدخل الحاج أو المعتمر إلى المسجد الحرام، ثم تقع عيناه على البيت العتيق، يشعر وكأن الدنيا كلها قد توقفت لثوانٍ، ترتجف الروح، وتلين النفس، وتنساب الدمعة بهدوء دون استئذان، تلك الدمعة ليست دمعة عينٍ فقط، بل دمعة قلبٍ وصل بعد طول شوق، ودمعة روحٍ أدركت معنى القرب من الله.

أيها الحاج، هل سألت نفسك: لماذا يبكي الناس عند رؤية الكعبة؟، لأن الكعبة ليست مجرد بناءٍ من حجارة، بل رمزٌ للتوحيد، ومهوى أفئدة المؤمنين منذ زمن إبراهيم عليه السلام، هي القبلة التي اتجهت إليها وجوه المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، خمس مرات كل يوم، عبر قرونٍ طويلة، وحين يراها المؤمن لأول مرة، يشعر بعظمة هذا الدين الذي جمع الملايين على قبلةٍ واحدة وربٍّ واحد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران،٩٦)، فأول درسٍ يتعلمه الحاج عند رؤية الكعبة: أن التعظيم لله وحده، فنحن لا نعبد الكعبة، ولا نتعلق بالحجارة، وإنما نتجه

إليها طاعةً لله وامتثالًا لأمره، وهذا هو جوهر التوحيد: أن يكون القلب متعلقًا بالله وحده، لا بغيره، ولهذا قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه للحجر الأسود: "واللَّهِ، إِنِّي لأُقَبِّلُكَ، وإِنِّي أعلَمُ أنَّكَ حَجَرٌ، وأنَّكَ لا تَضُرُّ ولا تَنفَعُ، ولَولا أَنِّي رَأَيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَبَّلَكَ ما قَبَّلتُكَ " رواه مسلم.

أيها المبارك، يا لها من مدرسةٍ عظيمة في العقيدة!: طاعةٌ لله، واتباعٌ للنبي صلى الله عليه وسلم، دون غلوٍّ أو تعلقٍ بغير الله، فحين رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قواعد البيت، لم يكن همّهما بناء الجدران فقط، بل إقامة التوحيد في الأرض، كانا يبنيان بيتًا يكون مركزًا لعبادة الله وحده، قال تعالى:﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾(الحج:٢٧)، وقال تعالى:﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ (البقرة،١٢٧)، تأمل، نبيٌّ يبني بيت الله بيديه، يخاف ألا يُقبل منه العمل!، إنه درسٌ في الإخلاص والخضوع لله.

يا أخي، الكعبة تعلمنا: وحدة الأمة، فأنت ترى الأبيض والأسود، والغني والفقير، والعربي والأعجمي، كلهم بلباسٍ واحد، يتجهون لربٍ واحد، وتعلمنا: التجرد لله، فلا تفاخر في الإحرام، ولا تميّز بالمظاهر؛ فالكل عبادٌ لله، وتعلمنا: تعظيم شعائر الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج،٣٢)، لأن التوحيد يجمع القلوب، فما جمع هذه الملايين إلا عقيدة واحدة وقبلة واحدة.

فيا ضيف الرحمن، لا تُضيّع هذه اللحظة المباركة، ولا تكن مثل من ينشغل عند أول رؤية للكعبة بالتصوير والهواتف، فتضيع منه لحظةٌ قد لا تتكرر، عِش المشهد بقلبك، وادخل المسجد بهدوء وخشوع، وأكثر من الذكر والدعاء، واستحضر نعمة الله أن بلغك هذا المكان، وابكِ إن تحركت روحك، فهذه دموعُ رحمة، لا ضعف، واجعل أول دعواتك: اللهم أصلح قلبي على التوحيد، ولا تجعل فيه تعلقًا بغيرك، ولا تمنع دمعتك إذا تسللت إلى عينيك، فربما كانت تلك الدمعة بدايةَ حياةٍ جديدة، يعود فيها القلب إلى الله كما يعود الطائف إلى نقطة البداية حول البيت.

- **وقفة مع النفس**

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس الثالث عشر: الإحرام والتجرد من الدنيا

ما أعجب لحظة الإحرام، لحظة الدخول في نسك الحج أو العمرة، لحظةٌ يترك فيها الإنسان ثيابه المعتادة، وألقابه المتداولة، ومظاهره المتميزة، ثم يقف في لباس بسيط يشبه الناس جميعًا، وكأن الله ينادي عباده: تعالوا إليّ كما أنتم بلا تكلف، ولا تفاخر، ولا زينة تُخفي حقيقة الإنسان، لأن الإحرام ليس مجرد تغيير لباس، بل هو تغيير شعور، وانتقال من عالم الدنيا إلى مدرسة العبودية والتجرد لله، قال الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ (البقرة، ١٩٦)، فكل شيء في الإحرام يذكّر الإنسان أن المقصود هو الله، لا المظاهر، ولا الصور، ولا مقاييس الناس الزائلة.

أيها الحاج، حينما يدخل الناس في النسك، ترى الغني بجوار الفقير، والحاكم بجوار العامل، وصاحب المنصب بجوار البسيط، كلهم بلباسٍ واحد لا يكاد يميز أحدًا عن أحد، فلا ثوب فاخر، ولا شعار يدل على المكانة، ولا أوسمة تُرفع فوق الأكتاف، إنه إعلان عملي أن قيمة الإنسان ليست فيما يلبس، بل فيما يحمل في قلبه من تقوى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات، ١٣)، ففي الإحرام تتساقط الفوارق المصطنعة التي صنعها الناس، ويبقى الإنسان عبدًا ضعيفًا بين يدي الله.

أيها المبارك، إن من أعظم أسرار لباس الإحرام أنه يشبه الكفن؛ قطعتان بسيطتان لا جيوب فيهما، ولا زينة، ولا تفاخر، وكأن الحاج يتدرّب عمليًا على يوم الرحيل الأخير،

يوم يخرج الإنسان من الدنيا بلا مال ولا منصب ولا جاه، كان عمر بن عبد العزيز يبكي أحيانًا إذا تذكر الموت، ويقول: "كأنني خرجت من الدنيا لا أملك إلا كفني"، ولهذا يشعر كثير من الناس عند الإحرام برقّةٍ عجيبة في القلب، لأن النفس تدرك أن النهاية الحقيقية ليست فيما نملك، بل فيما نقدّم لله.

يُروى أن أحد الملوك حجّ قديمًا، وكان الناس يهابونه هيبة شديدة، فلما أحرم اختلط بالطائفين ولم يعرفه أحد، فبكى وقال: والله ما شعرت بعدل الإسلام كما شعرت به اليوم، لماذا؟، لأن الإحرام يسحب من الإنسان كل ما كان يرفعه فوق الناس، ليشعر أن الجميع عبيد لله، وأن التفاضل الحقيقي ليس بالهيئة وإنما بالقرب من الله.

يا أخي، في موسم الحج والعمرة ترى الطبيب والمهندس والتاجر والعامل والخادم والمعلم يقفون في صف واحد، ويلبون بصوت واحد، ويلبسون لباسا واحدا، يتعلمون من الإحرام دروسا كثيرة، منها: التربية على التواضع، فهم ممنوعون من بعض مظاهر الزينة والتجمّل، ليعتاد القلب البساطة والانكسار لله، قال صلى الله عليه وسلم: " رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طِمرَينِ، مُصفَحٌ عن أبوابِ النَّاسِ، لو أقسمَ على اللهِ لأَبرَّهُ " صححه الألباني، ويتعلمون: ضبط النفس، قال الله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة، ١٩٧)، وكأن الله يربي الحاج على أن العبودية الحقيقية في تهذيب الأخلاق وضبط اللسان والجوارح، ويتعلمون أن: الناس سواسية، فالإحرام يهدم أوهام الطبقية التي يتعالى بها بعض البشر، فالغني قد ينام بجوار الفقير، وصاحب الشهرة قد يزاحمه إنسان لا يعرفه

أحد، فالحج مؤتمر عالمي يعلن كل عام أن البشر مهما اختلفت ألوانهم ولغاتهم فهم عباد لله يجمعهم التوحيد.

فيا ضيف الرحمن، إذا لبست ثياب الإحرام، فتذكر أنك لا تخلع قماشًا فقط، بل تخلع شيئًا من الكبر، ومن التعلق بالدنيا، وتذكر أن الله لا ينظر إلى جمال لباسك، بل إلى صدق قلبك، فطوبى لمن أحرم بجسده وقلبه معًا، فخرج من النسك بثوبٍ أبيض، وقلبٍ أنقى، وروحٍ أدركت أن أعظم شرف للإنسان أن يكون عبدًا لله وحده.

- **وقفة مع النفس**

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس الرابع عشر: التلبية وتجديد التوحيد

عندما يلبس الحاج أو المعتمر ثياب الإحرام، ترتفع من قلبه قبل لسانه كلمات عظيمة تهز الروح وتوقظ الإيمان: " لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك"، إنها ليست مجرد كلمات يرددها الناس في الطريق، بل إعلان بأن الولاء كله لله، وتجديد لعهد التوحيد، وصرخة إيمانية تقول: يا رب جئتُك مستجيبًا، خاضعًا، محبًا، لا أريد إلا رضاك.

أيها الحاج، كان النبي صلى الله عليه وسلم يرفع صوته بالتلبية حتى يُسمع من حوله، لأنها شعار هذه الرحلة الإيمانية العظيمة، فما معنى لبيك؟، " لبيك" تعني: أنا مقيم على طاعتك يا رب، مستجيب لأمرك، مرة بعد مرة، وكأن الحاج يقول: يا رب، تركت الدنيا خلف ظهري، وجئت أجيب دعوتك، إنها كلمة تحمل الحب والخضوع والانقياد، قال الله تعالى عن نداء الحج:﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ (الحج، ٢٧)، فالتلبية هي جواب الأمة لذلك النداء العظيم الذي أطلقه إبراهيم عليه السلام منذ آلاف السنين.

أيها المبارك، إن من أعظم معاني التلبية قول الحاج: " لا شريك لك"، فالحاج يكررها مرة بعد مرة ليطهر قلبه من كل تعلق بغير الله، لا شريك لك في العبادة، ولا في الرجاء، ولا

في المحبة، ولا في الخوف، فالناس في الدنيا قد تستعبدهم الأموال أو الشهوات أو نظرة الناس، أما المؤمن فيأتي إلى الحج ليعلن أن قلبه لله وحده، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ (الأنعام، ١٦٢-١٦٣).

يا أخي، حين يرفع الملايين أصواتهم بهذه الكلمات، تختفي الفوارق بين البشر؛ بين الغني والفقير، والأمير والعامل، والعربي والأعجمي، الجميع يرددون النداء نفسه، وكأن الحج يقول للناس: لا عظمة إلا لله، كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما إذا لبّى ارتفع صوته حتى يكاد يبحّ، تعظيمًا لله وفرحًا بالطاعة.

ومن دروس التلبية: تذكّر يوم القيامة، فأصوات الحجيج وهم يلبّون في الطرقات والجبال والمشاعر مشهد يهز القلب، وكأنه يذكّر بنداء الناس يوم القيامة حين يُبعثون لرب العالمين، فالمؤمن حين يلبي يستشعر أنه يسير إلى الله، وأن العمر كله رحلة قصيرة تنتهي بلقاء الله، ومن دروسها: سرعة الاستجابة لأمر الله، لأن التلبية تعلم المسلم أن المؤمن الحقيقي لا يماطل إذا دعاه الله، فكما استجاب للحج، ينبغي أن يستجيب للصلاة، وللطاعة، ولأوامر الله كلها، وقد مدح الله المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (النور، ٥١).

فيا ضيف الرحمن، وأنت ترفع صوتك بالتلبية، لا تجعلها كلمات يرددها اللسان فقط، بل اجعلها حياةً يعيشها القلب، رددها بيقين المحب، وخضوع العبد، وفرح المستجيب،

فما أجمل أن يسمع الله من قلبك قبل صوتك أنك جئت إليه صادقًا، متجردًا، راغبًا في رحمته، وتذكر أن من أعظم أسرار التلبية أن يبقى معناها حيًا بعد العودة من الحج، فالمؤمن ينبغي أن يعيش حياته كلها وهو يقول بلسان حاله: لبيك يا رب، فإذا دعاه الله للصلاة قال: لبيك، وإذا دعاه لبر الوالدين قال: لبيك، وإذا دعاه لترك المعصية قال: لبيك، لأن الحياة كلها استجابة لله.

- **وقفة مع النفس**

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس الخامس عشر: أسرار الطواف حول الكعبة

الطواف ليس مجرد شعيرة تُؤدى، ولا حركة أقدام تدور حول بناء عظيم، بل وراء كل شوطٍ سرّ، وخلف كل دورة معنى، وفي كل خطوة رسالة إيمانية عميقة، وهو رحلة قلبٍ يريد أن يتحرر من كل شيء سوى الله، وكأن الله يدعو عباده في المطاف إلى دورةٍ تربوية تُعيد ترتيب القلب من الداخل، قال الله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (الحج، ٢٩)، سُئل بعض أهل العلم: لماذا شُرِع الطواف؟، فقال: ليعلم العبد أن حياته كلها ينبغي أن تدور حول طاعة الله كما يدور جسده حول بيت الله.

أيها الحاج، إن الناس في هذه الدنيا تطوف قلوبهم حول أشياء كثيرة؛ فمنهم من يطوف حول المال، ومنهم من يطوف حول الشهرة، ومنهم من تدور حياته كلها حول الناس ومدحهم ورضاهم، أما المؤمن فيأتي إلى الكعبة ليعلن أن محور حياته واحد هو: الله جل جلاله، قال صلى الله عليه وسلم: " من طافَ بالبيتِ لم يرفَع قدمًا ولم يضَع إلَّا كتبَ اللَّهُ لَهُ حسنةً ويُحطُّ عنهُ خطيئةً، وَكَتبَ لَهُ درجةً " صحيح ابن خزيمة، والمؤلم أن ترى بعض الناس يطوف بجسده بينما قلبه في الأسواق، أو في الهاتف، أو في أحاديث الدنيا، أو في متابعة الناس وتصوير المشاهد، حتى ربما أتم سبعة أشواط ولم يفتح قلبه لله مرة واحدة!.

أيها المبارك، إن الطواف ليس سباقًا للأقدام، بل سباقٌ للقلوب، ولذا كانت أسراره عظيمة إذا فقهها المسلم، ومنها:

السر الأول: أن يكون الله مركز حياتك، وهو أعظم أسرار الطواف أن تدور حول بيتٍ واحد، لا حول بيوت كثيرة، وكأن الله يربي عباده على التوحيد العملي؛ فكما أن الجسد لا يطوف إلا حول كعبة واحدة، فكذلك القلب لا ينبغي أن يتعلق إلا بإله واحد، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام، ١٦٢).

السر الثاني: أن القرب من الله لا يحتاج إلا قلبًا حاضرًا، لأنك في المطاف ترى الغني والفقير، والقوي والضعيف، والحاكم والمحكوم، كلهم بثياب متشابهة، يتحركون في دائرة واحدة، لا فضل لأحدٍ على أحد إلا بالتقوى، وكأن الطواف يخلع عن الإنسان أوهام الكِبر والتفاخر، رُوي أن الحسن البصري رأى رجلًا يزاحم الناس مزاحمة شديدة عند الحجر الأسود، فقال له: يا هذا، إن الله يعلم مكانك، فلا تؤذِ عباد الله.

السر الثالث: الطواف يشبه حركة الكون كلها، تأمل هذا المشهد العجيب: الناس يطوفون حول الكعبة في انسجام عجيب، وكأنهم جزء من نظام كوني كبير، فالملائكة تطوف حول البيت المعمور في السماء، والكواكب تدور في أفلاكها، والإلكترونات تدور في الذرات، والمؤمن يطوف حول بيت الله، وكأن الكون كله يعلن الخضوع لله بنظام دقيق، قال الله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس، ٤٠).

السر الرابع: الطواف تدريب على الثبات، تأمل سبعة أشواط كاملة، قد يتعب فيها الجسد، وقد يشتد الزحام، وقد ترتفع الحرارة، ومع ذلك يستمر الطائف حتى يُتم نسكه، وكأن الطواف يعلّم الإنسان درسًا عظيمًا: أن الطريق إلى الله يحتاج صبرًا واستمرارًا، لا

حماس البدايات فقط، فكم من إنسان بدأ الطاعة ثم توقف، وكم من إنسان تحمس أيامًا ثم فتر، أما الطواف فيقول لك: أكمل حتى النهاية، قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر، ٩٩).

السر الخامس: الذكر هو روح الطواف، لو خلا الطواف من الذكر لتحول إلى حركةٍ جسدية فقط، ولذلك كان السلف يملؤون طوافهم بالتسبيح والدعاء والاستغفار، كما جاء عن عبد الله بن عباس موقوفا: "الطوافُ بالبيتِ صلاةٌ إلا أن الله أباح فيه الكلامَ" رواه الترمذي، لأن القلب أثناء الطواف يكون قريبًا من أبواب الرحمة، لذا كانت لحظات الدعاء فيه من أعظم اللحظات أثرًا على النفس.

السر السادس: البداية بالحجر والنهاية إليه، يبدأ الطائف من الحجر الأسود ثم يعود إليه بعد كل شوط، وكأنها رسالة أن حياة المؤمن تبدأ من عهدٍ مع الله ثم تعود إليه دائمًا، فالمؤمن قد يبتعد أحيانًا، وقد يغفل، لكنه يعود إلى ربه مرة بعد مرة، ولهذا كان بعض السلف يقول: السعيد ليس من لا يخطئ، بل كلما ابتعد عاد إلى الله.

السر السابع: الطواف يوقظ معنى الآخرة، فمشهد الطائفين وهم يتحركون في اتجاه واحد يذكّر بيوم القيامة، يوم يجتمع الناس حفاةً ضعفاء لا يملكون إلا أعمالهم، هنا تذوب الفوارق، وتسقط الأقنعة، ويبقى القلب معلقًا بالله، ولهذا كان بعض الصالحين إذا طاف بكى طويلًا، فقيل له: ما يبكيك؟، قال: تذكرت ازدحام الخلق يوم القيامة.

فيا ضيف الرحمن، إذا دخلت المطاف، فلا تدخل بجسدك فقط، بل أدخل بقلبٍ متجرد من الدنيا، حاضرٍ مع الله، وتذكر أن الطواف ليس دورانًا حول أحجار، بل دوران روحٍ تبحث عن ربها، وقلبٍ يريد أن يتحرر من كل ما سوى الله، فإذا خرجت من المطاف وقد ازداد ذكرك، ورقّ قلبك، وهدأت روحك، وعظُم شوقك إلى الله، فاعلم أن للطواف سرًا قد لامس قلبك، وأن الله أراد بك خيرًا عظيمًا.

- **وقفة مع النفس**

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس السادس عشر: السعي وقصة هاجر

مشهدٌ عظيم عندما ترى ملايين البشر منذ قرون طويلة يسعون بين جبلين صغيرين في أرض مكة، يكررون ذات الطريق، ويستحضرون ذات القصة، وكأن الزمن توقف عند امرأة مؤمنة وقفت في صحراء قاحلة لا تملك إلا طفلًا رضيعًا وقلبًا ممتلئًا بالله، فالسعي بين الصفا والمروة ليس مجرد انتقال بين موضعين، بل هو مدرسة إيمانية كبرى، تعلم الحاج والمعتمر كيف يعيش مع الله في أوقات الخوف والضعف والاحتياج، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ (البقرة، ١٥٨)، هي شعيرة خلد الله ذكرها بقصة امرأة صادقة، لتبقى قصتها درسًا لكل قلب مؤمن إلى قيام الساعة.

أيها الحاج، حين ترك إبراهيم عليه السلام زوجته هاجر وطفلها إسماعيل في وادٍ لا زرع فيه ولا ماء، كان المشهد فوق طاقة البشر، صحراء موحشة، وشمس حارقة، وطفل يبكي من العطش، ولا أنيس إلا الله، فقالت هاجر لإبراهيم عليه السلام: " آلله أمرك بهذا؟ "، قال: نعم، فقالت الكلمة التي ينبغي أن تُكتب بماء الذهب: " إذن لا يضيّعنا الله "، فيا لها من كلمة خرجت من قلب امتلأ يقينًا، هي لم تقل: كيف أعيش؟، ولم تقل: لماذا أُترك هنا؟، بل علّقت قلبها بالله، فصارت قصتها قرآنًا يُتلى، وشعيرةً يتعبد بها كل مسلم ومسلمة.

أيها المبارك، إن أعظم دروس السعي: اليقين بالله والأخذ بالأسباب، فهاجر لم تجلس تنتظر المعجزة وهي ساكنة، بل أخذت بالأسباب بكل ما تستطيع، صعدت على الصفا تبحث عن ماء أو إنسان فلم تجد، فنزلت مسرعة إلى المروة فلم تجد، ثم عادت مرة بعد مرة، سبعة أشواط كاملة، وقلب الأم يشتعل خوفًا على طفلها، وكأن الله يريد أن يعلم عباده أن التوكل الحقيقي ليس ترك العمل، بل الجمع بين الثقة بالله وبذل الجهد، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " لو أنَّكم كنتُم توَكلونَ علَى اللهِ حقَّ توَكلِه لرزقتُم كما يرزقُ الطَّيرُ تغدو خماصًا وتروحُ بطانًا " رواه الترمذي، فالطير لا تبقى في أعشاشها، بل تغدو وتسعى، حتى يأتيها الرزق من حيث لا تحتسب.

وبعد كل هذا السعي، لم يخرج الماء من الصفا ولا من المروة، بل خرج من تحت قدمي الطفل الصغير!، إنها رسالة عظيمة: قد تبذل الأسباب في اتجاه، لكن الفرج يأتي من مكان آخر لا يخطر ببالك، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق، ٢-٣)، ولذا على المسلم أن لا يحتقر سعيه، ولو بدا صغيرًا أو متعبًا، فربما كان الفرج قريبًا وهو لا يشعر.

يا أخي، أثناء السعي وفي المنطقة الخضراء يسن للرجل أن يهرول، تذكيرًا بذلك المشهد المؤثر حين كانت هاجر تُسرع خوفًا على طفلها، إنه مشهد أمومةٍ ممزوجة بالإيمان، وخوفٍ ممتلئ بالثقة بالله، فالسعي ليس مجرد حركة، بل استحضار لمعاناة امرأة عظيمة صنعت أمة كاملة بيقينها، لأن السعي يعلمنا أن الفرج يحتاج صبرًا، هي: سبعة أشواط كاملة،

ذهابًا وإيابًا، تعبٌ وانتظار، حتى جاء الفرج، وهكذا الحياة؛ فكثير من الناس يريد الفرج من أول دعوة، أو يريد النتائج من أول خطوة، لكن الله يربي عباده على الصبر، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "وجدنا خير عيشنا بالصبر" (الزهد للإمام أحمد)، فلا تيأس إن طال الطريق، فربما كانت آخر خطوة هي باب الفرج.

فيا ضيف الرحمن، كم من إنسان إذا ضاقت به الحياة توقف، واستسلم للحزن واليأس، لكن هاجر تعلمنا درسًا مختلفًا؛ أن المؤمن يتحرك حتى وهو مكسور، ويسعى حتى وهو خائف، ويطرق أبواب الرجاء ولو بدا الطريق مستحيلًا، ولهذا كان السعي عبادة متكررة، لأن الأمة تحتاج دائمًا إلى هذا المعنى: لا تستسلم، بل تحرك، واسعَ، وأحسن الظن بالله.

- **وقفة مع النفس**

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس السابع عشر: الوقوف بعرفة

حين تقف الأرواح، في أرض الله الواسعة، وبقلوبٍ متعبة جاءت من كل فج عميق، رافعةٌ أيديها إلى السماء، وبدموعٍ تنزل بصمت، وألسنةٍ تردد الدعاء، وكأن البشرية كلها تقف على باب ربها تقول: يا الله ارحمنا، ويا الله اغفر لنا، إنه مشهد عظيمٌ، لا يشبه مشهد في الدنيا، إنه يوم الوقوف بعرفة، هو ليس مجرد محطة في الحج، بل هو أعظم مواسم الانكسار بين يدي الله، وأوسع أبواب الرجاء، يومٌ يشعر فيه الإنسان بحقيقته؛ بأنه عبدٌ ضعيف لا غنى له عن ربه طرفة عين، قال صلى الله عليه وسلم: " إنَّ اللهَ تعالى يُباهِي ملائِكتَهُ عشِيَّةَ عرَفةَ بأهلِ عرَفةَ، يقولُ: انظُروا إلى عبادِي، أتوْنِي شُعْثًا غُبْرًا " صحيح الجامع، وقال صلى الله عليه وسلم: " الحجُّ عرفةُ " رواه الترمذي.

أيها الحاج، هل سألت نفسك؟: لماذا سُمّيت عرفة بهذا الاسم؟، قيل في ذلك: لأن الناس يتعارفون فيها، وقيل: لأن العبد يتعرّف فيها على ربه بقلبه، وقيل: لأن الإنسان يعرف قدر ضعفه وحاجته إلى الله، وفي الحقيقة من وقف بعرفة صادقًا عرف أشياء كثيرة، منها: عرف فقره إلى الله، وعرف تقصيره، وعرف أن الدنيا أصغر من أن يتعب نفسه عليها، إنه مشهد يشبه يوم القيامة، فأنت حين تنظر إلى الحجيج في عرفات، بلباسٍ واحد، وتضرعٍ واحد، ووجوهٍ أنهكها السفر، تشعر وكأنك ترى صورة مصغرة من يوم الحشر، لا ألقاب، ولا مناصب، ولا فروق بين غني وفقير، الجميع واقفون ينتظرون رحمة الله،

ولهذا كان بعض السلف إذا وقف بعرفة بكى طويلًا، فقيل له: ما يبكيك؟، قال: أخشى أن أقف اليوم مع أهل الرحمة، ثم أعود محرومًا.

أيها المبارك، يوم عرفة يعلمنا دروسا كثيرة، منها: الدعاء والإكثار منه بقلب صادق، قال صلى الله عليه وسلم: " خيرُ الدُّعاءِ دُعاءُ يومِ عَرَفةَ، وخَيرُ ما قُلْتُ أنا والنبيُّونَ من قَبْلي: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ له، له المُلْكُ، وله الحَمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قَديرٌ " حديث حسن، ففي هذا اليوم يشعر الإنسان أن قلبه أقرب إلى السماء، وأن أبواب الرحمة مفتوحة على مصاريعها، فكم من إنسان دخل عرفة مهمومًا فخرج مطمئنًا؟، وكم من مذنب دخلها منكسرًا فخرج وقد غمره الأمل في عفو الله؟، إن الدعاء في عرفة ليس ألفاظًا محفوظة فقط، بل حديث قلبٍ أنهكته الحياة، فجاء يشتكي لربه، يشتكي ضعفه، وخوفه، وهمومه، وذنوبه، فربك يسمع دبيب قلبك قبل صوت لسانك، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر، ٦٠).

يا أخي، ومن دروس عرفة: لا ملجأ إلا الله، في عرفات يسقط اعتماد القلب على البشر، فلا طبيب يشفي وحده، ولا مال ينفع وحده، ولا منصب يرفع صاحبه إذا خذله الله، هنا يتعلم الحاج أعظم درس: أن الملجأ الحقيقي هو الله، وقف الإمام أحمد بن حنبل يومًا بعرفة يدعو طويلًا ويبكي، فقيل له: ما الذي ترجوه؟، قال: أرجو أن أكون ممن نظر الله إليهم في هذا اليوم فقال: قد غفرت لكم.

ومن الدروس: أن عرفة يوم العتق والمغفرة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ما من يومٍ أكثرُ من أن يعتِقَ اللهُ فيه عبيدًا من النَّارِ من يومِ عرفةَ، وأنه لَيدنو، ثم يباهي بهم الملائكةَ فيقول: ما أراد هؤلاءِ؟ اشهَدوا ملائكتي أني قد غفرتُ لهم " رواه مسلم، يا لها من بشارة عظيمة، في هذا اليوم تُغفر الذنوب، وتُرفع الدرجات، وتُجاب الدعوات، ويقترب الله من عباده قربًا يليق بجلاله، ولذا كان بعض الصالحين يقول: أعظم الخسارة أن يمر يوم عرفة وقلبك منشغل بغير الله.

فيا ضيف الرحمن، لا تُضيع يوم عرفة بالتصوير، أو الأحاديث الجانبية، أو متابعة الهواتف، بينما السماء مفتوحة والرحمات تتنزل، فإن دقائق عرفة أثمن من الذهب، وربما دعوة صادقة في هذا اليوم تغيّر حياة الإنسان كلها، قال ابن المبارك: جئت إلى سفيان الثوري عشية عرفة وهو جاث على ركبتيه وعيناه تهملان فقلت له: من أسوأ هذا الجمع حالا؟ قال: الذي يظن أن الله لا يغفر لهم، (لطائف المعارف)، فيا أخي، إذا وقفت بعرفة، ارفع يديك بيقين، وادعُ بقلب حاضر، فرب دعاء صادق غيّر قدر إنسان بإذن الله.

- وقفة مع النفس

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس الثامن عشر: مزدلفة ليلة السكينة

بعد يومٍ طويل في عرفات، امتلأت فيها قلوب الحجاج بالدعاء، وارتفعت أكفهم إلى السماء، سائلة التوبة وراجية المغفرة، سالت معها الدموع خوفًا وطمعًا، تحرك الحجيج بعدها مع غروب شمس عرفة إلى مزدلفة، في مشهد هادئ مهيب، وكأن الأرواح بعد بكائها الطويل جاءت لتسكن وتهدأ قليلًا، فمزدلفة ليست مجرد محطة للمبيت، بل ليلة تربوية عظيمة، يتعلم فيها الحاج معنى السكينة، والتأمل، والافتقار إلى الله، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة، ١٩٨)، وسُمّيت بالمشعر الحرام لأن القلوب فيها تستشعر قرب الله، وتهدأ بعد اضطراب الدنيا.

أيها الحاج، في مزدلفة ينام الناس على الأرض، بلا تكلف ولا ترف، السماء سقفهم، والأرض فراشهم، والنجوم تلمع فوق رؤوسهم في سكون عجيب، هناك يشعر الإنسان كم هو ضعيف، وكم أن الحياة التي شغلته طويلًا أصغر مما كان يظن، قد ينام الوزير بجوار العامل، والغني بجوار الفقير، لا حواجز ولا امتيازات، إنها ليلة تسقط فيها الأقنعة، وتعيد الإنسان إلى فطرته الأولى؛ عبدًا فقيرًا إلى الله، فيها يتربى القلب على السكينة.

يا أخي، فبعد زحام عرفات وكثرة الأصوات، تأتي مزدلفة وكأنها تقول للحاج: اهدأ، ثم اجلس مع نفسك، وتأمل رحلتك مع الله، وتذكر سير النبي صلى الله عليه وسلم إلى مزدلفة وهو يسير بسكينة وطمأنينة، جاء في صحيح البخاري عن عبدالله بن عباس رضي

الله عنهما قال: " أنَّه دَفَعَ مع النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَومَ عَرَفةَ، فسَمِعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وراءَه زَجرًا شَديدًا، وضَربًا وصَوتًا للإبِلِ، فأشارَ بسَوطِه إليهم، وقال: أيُّها النَّاسُ، علَيكُم بالسَّكينةِ؛ فإنَّ البِرَّ ليس بالإيضاعِ "، فليست العبادة صخبًا دائمًا، بل أعظم العبادات سكون القلب وهدوء الروح.

أيها المبارك، كم من إنسان عاش سنوات طويلة لم يجلس ولو مرة مع نفسه لحظة صدق واحدة؟، لكن في مزدلفة، والإنسان بعيدًا عن مشاغل الحياة، يجد فرصة نادرة للتأمل؛ يتأمل ذنوبه، وعمره الذي مضى، ونِعَم الله عليه، وحاجته إلى التوبة والعودة، كان الحسن البصري يقول: رحم الله عبدًا وقف عند همّه، فإن كان لله أمضاه، وإن كان لغير الله تأخر، لأننا نحتاج أحيانًا إلى لحظات صمت مع الله أكثر من حاجتنا إلى كثرة الكلام.

يا أخي، يتعلم المسلم من مزدلفة دروس كثيرة، منها: التواضع عندما يبيت على الأرض، لأنه في حياته يتنافس على الفرش الفاخرة والمساكن الواسعة، لكن الحاج في مزدلفة ينام على الأرض، وربما جعل حقيبته وسادة له، وكأن الله يذكّره بأن راحة الدنيا مؤقتة، وأن الإنسان مهما علا سيعود يومًا إلى التراب، مرّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قوم في الحج فرأى تواضعهم وبساطة حالهم فقال: هكذا تكون العبودية، لأنها ليلة تُكسر فيها نزعة الكِبر، ويشعر الإنسان أن قيمته الحقيقية ليست فيما يملك، بل فيما يحمل من إيمان.

ومن دروس مزدلفة: أن نتعلم معنى الاستعداد، فعندما يلتقط الحاج حصيات الجمار، وكأنه يُعِدّ نفسه لمعركة مع الشيطان، لا بالحجارة فقط، بل بعزيمة القلب، فالشيطان الذي سيُرمى غدًا ليس الشيطان الذي نعرفه، بل شياطين الهوى والغفلة والذنوب، ولهذا كان بعض السلف يقول: ليس الشأن أن ترمي الحصى، بل الشأن أن ترمي ما في قلبك من معصية، ومن دروسها: القناعة والبساطة، ففي تلك الليلة يقل الطعام، ويخفّ الترف، ويعيش الناس ببساطة شديدة، ومع ذلك يجد كثير منهم راحة عجيبة لم يجدوها في الفنادق الفاخرة، لأن الطمأنينة الحقيقية ليست في وفرة الأشياء، بل في قرب القلب من الله، قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد، ٢٨).

فيا ضيف الرحمن، إذا نزلت مزدلفة، فلا تجعلها مجرد مكان للنوم والراحة، بل اجعلها ليلة مراجعة للقلب، اهدأ قليلًا، وانظر إلى السماء، وتذكر أن الحياة مهما ازدحمت فإن أجمل لحظاتها تلك التي يكون فيها القلب قريبًا من الله، فطوبى لمن خرج من مزدلفة وقد خفّ تعلقه بالدنيا، وزاد تعلقه بالآخرة.

وقفة مع النفس

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس التاسع عشر: رمي الجمرات وإعلان الحرب على الشيطان

ما أعظم مشهد الحجيج وهم يقفون عند الجمرات يرفعون الحصى ثم يرمون بها في قوةٍ ويقين، مرددين الله أكبر، وكأنهم يعلنون أمام الدنيا كلها: لن نستسلم لإبليس وأعوانه، ولن نترك قلوبنا فريسة للغفلة والهوى، فرمي الجمرات ليس مجرد إلقاء حصيات في موضع محدد، بل هو عبادة عظيمة تحمل معاني الثبات على طاعة الله وعلى مقاومة الشيطان والهوى، قال الله تعالى عن عداوة الشيطان: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (فاطر، ٦)، وكأن الحاج حين يرمي الجمرات يجدد هذا الإعلان العظيم: يا رب، سأحارب الشيطان ما حييت.

أيها الحاج، يرتبط رمي الجمرات بقصة عظيمة من أعظم قصص الطاعة والتسليم، قصة نبينا إبراهيم عليه السلام حين رأى في المنام أنه يذبح ابنه، فخرج ممتثلًا لأمر الله، وفي الطريق اعترضه الشيطان يريد أن يثنيه عن الطاعة، فأصبح يوسوس ويشكك في أمره، فرماه إبراهيم عليه السلام بالحجارة طردًا له وإعلانًا لرفض وساوسه، ثم اعترض الشيطان هاجر، ثم إسماعيل عليه السلام، فثبتوا جميعًا على أمر الله، فخلّد الله هذا الموقف، ليبقى درسًا للأمة كلها: أن طريق الطاعة لا يخلو من وساوس الشيطان، وأن المؤمن يحتاج دائمًا إلى مقاومته، قال صلى الله عليه وسلم: " لمَّا أَتَى إبراهيمُ خَلِيلُ اللهِ المَناسِكَ عرضَ لهُ الشَّيْطَانُ عندَ جَمْرَةِ العقبةَ، فَرَماهُ بِسبعِ حصياتٍ حتى ساخَ في الأرضِ، ثُمَّ عرضَ لهُ عندَ

الجمرةِ الثانيةِ، فَرَماهُ بِسبعِ حصياتٍ حتى ساخَ في الأرضِ، ثُمَّ عرضَ لهُ عِنْدِ الجمرةِ الثالثةِ، فَرَماهُ بِسبعِ حصياتٍ حتى ساخَ في الأرضِ، قال ابْنُ عباسٍ : الشيطانَ تَرْجُمُونِ، ومِلَّةَ أَبيكُمْ إبراهيمَ تَتَّبِعُونَ" صحيح الترغيب.

أيها المبارك، إن الشيطان الحقيقي ليس عند الجمرات فقط، بل قد يكون في داخل النفس: في غضبٍ لا يضبطه الإنسان، أو نظرة محرمة، أو كبرٍ يسكن القلب، أو تسويفٍ للتوبة، ولهذا قال بعض السلف: إذا رميت الجمار فارمِ معها ذنوبك وشهواتك، فالمؤمن الصادق لا يرمي حجارة فحسب، بل يرمي كل طريق يبعده عن الله، لأن الشيطان لا يملّ من الوسوسة، فهو لم يترك إبراهيم عليه السلام وهو نبي كريم، فكيف يترك غيره؟، ولذا هو يدخل على الإنسان من أبواب كثيرة؛ مرةً بالتخويف، ومرةً بالشهوة، ومرةً بالتسويف، ومرةً بالعُجب والغرور، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ (الأعراف، ١٧)، أي أنه لا يتوقف عن محاولاته لإضلال الإنسان، ولهذا فإن رمي الجمرات يعلّم الحاج اليقظة والحذر، وألا يثق بنفسه مهما كان صالحًا.

يا أخي، كلما رمى الحاج حصاة كبّر، وكأن المعنى: الله أكبر من الشيطان، وأكبر من الشهوة، وأكبر من الخوف، وأكبر من كل ما يحاول أن يبعده عن طاعته، فالمؤمن لا ينتصر على إبليس بقوة شخصيته، بل بتعظيمه لله واعتصامه به، قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ (الأعراف، ٢٠٠)، وهنا تأمل كيف يكرر الحاج الرمي

أيامًا متعددة، وكأن الرسالة أن معركة الإنسان مع الشيطان ليست معركة يومٍ واحد، فالشيطان يعود كل يوم، والهوى يعود، والغفلة تعود، ولذلك يحتاج المؤمن إلى مجاهدة مستمرة، لنفسه وللهوى.

فيا ضيف الرحمن، إبليس لا يأتي الإنسان دائمًا بصورة المعصية الواضحة، بل قد يلبّس عليه الخير أحيانًا، فقد يدفعه إلى: الغلو والتشدد، أو اليأس من رحمة الله، أو احتقار الناس، أو العُجب بالطاعة، فالمؤمن عليه أن يبقى خائفًا من مكر الشيطان مهما عمل من الطاعات.

وتذكر أن الرمي الحقيقي بعد الحج، أن ترمي رفقة السوء، وترمي المعاصي، وترمي التسويف، وترمي كل طريق يبعدك عن الله، فما أجمل أن يعود الحاج من منى وقد أعلن حربًا جديدة على ذنوبه وعاداته السيئة، واعلم أن أعظم انتصار ليس أن تقع الحصاة في المرمى، بل أن يخرج الشيطان من قلبك مهزومًا، وأن تعود من حجك أقوى إيمانًا، وأشد تعلقًا بالله، وأكثر حذرًا من طرق الغفلة والهوى.

- **وقفة مع النفس**

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس العشرون: الحلق والتقصير ودرس التواضع

بعد أيامٍ عظيمة عاشها الحاج بين الطواف والسعي وعرفات ومزدلفة والجمرات، تأتي لحظة الحلق أو التقصير، تلك اللحظة التي تبدو في ظاهرها بسيطة، لكنها تحمل في داخلها معاني عميقة من التجرد لله، والتواضع، وكسر التعلق بالمظاهر، إنها لحظة يضع فيها الإنسان شيئًا من زينته بين يدي الله، قال الله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ (الفتح: ٢٧)، فجعل الله الحلق والتقصير من شعائر النسك، ليبقى درسًا عمليًا في الطاعة والتجرد.

أيها الحاج، هل سألت نفسك: ما الحكمة من الحلق بعد هذه الرحلة؟، والجواب: يأتي الحلق وكأنه إعلان انتهاء مرحلةٍ وبداية مرحلة جديدة، فالمؤمن لا يخرج من الحج كما دخل، بل يعود وقد خفّ شيء من تعلقه بالدنيا، وزاد قربه من الله، والشعر الذي يعتني به الإنسان ويهتم بمظهره يُزال في لحظات طاعةً لله، ليشعر القلب أن قيمة الإنسان ليست في شكله وهيئته، بل في صدقه مع الله، قال صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ اللهَ تعالى لَا ينظرُ إلى صُوَرِكُمْ وَأَمْوالِكُمْ، ولكنْ إِنَّما ينظرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم" رواه مسلم.

أيها المبارك، كثير من الناس يعيش أسيرًا للمظهر؛ يهتم كيف يراه الناس، وكيف يبدو أمامهم، وربما شغله ذلك عن حقيقة قلبه، لكن الحاج حين يحلق رأسه أو يقصره يتعلم درسًا عظيمًا: أن العبودية لله أعظم من التعلق بالمظهر، ولذا كان بعض السلف يقول:

"إذا عظُم الله في القلب صغرت نظرة الناس"، فالمؤمن لا يعيش لأجل إعجاب الناس به، بل لأجل رضا الله عنه، ومن عظمة هذه الشعيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا للمحلقين ثلاث مرات فقال: " رحمَ اللَّهُ المحلِّقينَ قالوا والمقصِّرينَ يا رسولَ اللَّهِ قالَ رحمَ اللَّهُ المحلِّقينَ قالوا والمقصِّرينَ يا رسولَ اللَّهِ قالَ رحمَ اللَّهُ المحلِّقينَ قالوا والمقصِّرينَ يا رسولَ اللَّهِ قالَ والمقصِّرين" رواه البخاري، قال العلماء: لأن الحلق أبلغ في التجرد والتسليم لله.

يا أخي، حين يرى الإنسان رأسه بعد الحلق يشعر ببساطة الهيئة، وكأن الشعيرة تزيل شيئًا من الكِبر والخيلاء، لأن الحلق الحقيقي ليس أن يسقط الشعر من الرأس فقط، بل أن تسقط من القلب أمراض كثيرة: كالكبر، والرياء، والعجب، وحب الظهور، فكم من إنسان حلق شعره، لكن قلبه بقي ممتلئًا بالتفاخر؟!، وكم من عبدٍ خرج من الحلق بقلبٍ جديد أكثر تواضعًا وخضوعًا لله؟، فالحج الناجح ليس أن يعود الإنسان بشعر أقصر فقط، بل بقلب أنقى، ونفس أهدأ، وعلاقة أقوى مع الله.

أيها الحاج، الحلق يذكّرنا بزوال الدنيا، فالشعر الذي يصففه الإنسان ويعتني به سنوات، يزول في دقائق، وكأن الله يهمس لعبده: كل جمال الدنيا زائل، وكل مظهر سيفنى، فلا تتعلق إلا بما يبقى، قال الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (النحل: ٩٦)، ولذا فإن المؤمن العاقل يهتم بتجميل قلبه أكثر من انشغاله بتجميل صورته أمام الناس.

ومن دروس الحلق والتقصير: أن المؤمن يتعبد لله بالطاعة حتى وإن لم يدرك الحكمة منها، وهذا من أعظم معاني العبودية؛ أن تقول بقلبك قبل لسانك: سمعنا وأطعنا، كان عبد الله

بن عمر رضي الله عنهما شديد الاتباع للسنة، حتى في الأمور التي قد يراها الناس بسيطة، لأن قلبه تعلّم أن الخير كله في متابعة أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

فيا ضيف الرحمن، وأنت تحلق رأسك أو تقصر شعرك، تذكر أن الله لا يريد منك مجرد إزالة الشعر، بل يريد قلبًا يتجرد له وحده، وتذكر أن أعظم الجمال ليس جمال الصورة، بل جمال الطاعة والخضوع لله، فما أجمل أن يخرج الحاج من هذه الشعيرة وقد خفّ تعلقه بالمظاهر، وزاد تعلقه بالله، وأدرك أن قيمة الإنسان الحقيقية ليست فيما يراه الناس، بل فيما يراه رب الناس.

- **وقفة مع النفس**

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس الواحد والعشرون: عبادة الرفق بالحجاج والمعتمرين

حين يقف الحاج في رحاب البيت العتيق، ويلبس لباس الإحرام، فإنه لا يخلع ثيابه المعتادة فقط، بل يُفترض أن يخلع معها القسوة، والأنانية، وسوء الخلق، فالحج ليس حركةَ أجسادٍ بين المشاعر فحسب، بل تربيةٌ للنفس على الرحمة، والصبر، وحسن التعامل مع عباد الله، وما أكثر ما تُختبر أخلاق الحجاج والمعتمرين في الزحام؛ عند الطواف، والسعي، والمركبات، وأماكن الانتظار، هناك يظهر معدن الإنسان الحقيقي: هل يحمل قلبًا رحيمًا أم نفسًا مستعجلة لا ترى إلا نفسها؟، قال الله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة،١٩٧)، هنا نهى الله الحاج عن كل ما يفسد صفاء العبادة، ومن أعظمها أذية الناس بالقول أو بالفعل، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " المُسلِمُ مَن سَلِمَ المُسلِمونَ مِن لسانِه ويَدِه، والمُهاجِرُ مَن هَجَرَ ما نَهى اللهُ عنه" رواه البخاري، فكيف إذا كان هؤلاء المسلمون هم ضيوف الرحمن، اجتمعوا من كل فجٍّ عميق يرجون الرحمة والمغفرة؟.

أيها الحاج، إن الكلمة الجارحة، والدفع المؤذي، ورفع الصوت بالغضب، والتزاحم الأناني، قد تؤذي بسببها قلب مسلمٍ أكثر مما تتصور، يُروى أن رجلًا كان يطوف بالكعبة مسرعًا، يدفع الناس ليصل إلى الحجر الأسود، فالتفت إليه أحد الحجاج وقال له بهدوء: يا أخي، إن الذي تُقبّله حجر، والذي تؤذيه مسلم!، فتوقف الرجل طويلًا، وكأن العبارة أيقظت قلبه.

نعم يا أخي، كثيرٌ من الناس يحرص على بعض السنن، لكنه ينسى أن حفظ قلوب المسلمين وحقوقهم من أعظم القربات، قال صلى الله عليه وسلم: " إنَّ الرِّفقَ لا يَكونُ في شَيءٍ إلَّا زانَه، ولا يُنزَعُ مِن شَيءٍ إلَّا شانَه" رواه مسلم، فالرفق في الحج يجمّل الطواف، ويزيّن السعي، ويجعل الرحلة أكثر سكينة وبركة.

أيها المبارك، تذكر أن الحاج الرحيم هو: من يفسح الطريق لكبير السن، ومن يصبر على الجاهل والمتعب، ومن يخفض صوته عند الغضب، ومن يبتسم رغم التعب، ومن يعين المحتاج، ويعتذر إن أخطأ، وهذه الأخلاق قد تكون أثقل في ميزان العبد من كثيرٍ من الأعمال الظاهرة، كما قال صلى الله عليه وسلم: " ما من شيءٍ أثقلُ في ميزانِ المؤمنِ يومَ القيامةِ من خُلقٍ حسنٍ وإنَّ اللهَ يُبغضُ الفاحشَ البذيءَ " رواه أبوداود، فكم من حاجٍ أو معتمرٍ أكثَرَ الطواف والصلاة، لكنه خرج من الحج بقلبٍ قاسٍ لأنه لم يتعلم الرحمة!، فالحج مدرسة أخلاق قبل أن يكون أعمالًا ومناسك، قال بعض السلف: "ليس البر بكثرة الصلاة والصيام، ولكن البر بحسن الخلق وكف الأذى".

يا أخي، إن من صور الأذى التي ينبغي الحذر منها: الدفع الشديد أثناء الطواف أو السعي، ورفع الصوت بالصراخ والجدال، وإزعاج الناس وتصويرهم دون إذنهم، وإلقاء النفايات أو تلويث الأماكن، وتجاوز الطوابير والأنظمة، والتضجر المستمر الذي يفسد على الآخرين سكينتهم، والمؤمن الواعي يسأل نفسه دائمًا: هل وجودي في هذا المكان كان راحةً للناس أم أذية لهم؟.

فيا ضيف الرحمن، قد ينسى الناس طوافك وسعيك، لكنهم لا ينسون خُلقك، وقد لا يتذكر أحدهم طول عبادتك، لكنهم يتذكرون رحمتك وابتسامتك وصبرك، فاجعل حجك رحلةً لتطهير القلب من الأذى قبل أن يكون انتقالًا بين المشاعر، ففي الحج يجتمع الملايين، وتضيق الأماكن، لكن الأخلاق الواسعة قادرة على أن تجعل الزحام رحمةً لا مشقة، فكن ممن يحمل للناس سكينةً لا أذى، ورحمةً لا قسوة.

- **وقفة مع النفس**

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس الثاني والعشرون: التوازن بين العبادة والراحة

قبل أن يصل الحاج إلى مكة، تمتلئ روحه بالشوق، ويشعر أن كل لحظة ستكون في الحرم أو في المناسك كنزٌ لا ينبغي أن يضيّع، فتجد بعض الناس يندفع إلى العبادة اندفاعًا يرهق الأجساد ويُتعب النفوس؛ طوافٌ طويل، وسهرٌ متواصل، وقلة نوم، حتى تتحول العبادة التي جاءت رحمةً وسكينة إلى مشقةٍ تثقل القلب والنفس والجسد، هنا تظهر حكمة الإسلام العظيمة في تحقيق التوازن في حياة المسلم؛ فالدين لا يريد من الحاج أن يُنهك نفسه، بل أن يعبد الله بقلبٍ حاضر ونفسٍ مطمئنة، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة،١٢٥)، وقال صلى الله عليه وسلم: " إنَّ هذا الدينَ يسرٌ، ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبهُ، فسدِّدوا وقارِبوا وأبشِروا ويسِّروا" رواه البخاري، فالإسلام دينُ التوازن، لا الإفراط ولا التفريط.

أيها الحاج، كان النبي صلى الله عليه وسلم يراعي طاقة النفس والجسد، ويعلّم أصحابه أن للبدن حقًّا، جاء في حديث سلمان مع أبي ذر رضي الله عنهما:" إنَّ لنَفْسِكَ عليكَ حقًّا، ولِرَبِّكَ عليكَ حقًّا، ولِضَيْفِكَ عليكَ حقًّا، وإنَّ لِأهلِكَ عليكَ حقًّا؛ فأَعْطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، فأَتَيَا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فذكَرَا ذلكَ، فقال له: صَدَقَ سَلمانُ" رواه البخاري، فالحاج الذي يُرهق نفسه منذ الأيام الأولى قد يفقد نشاطه في أعظم المواطن، وربما دخلت العبادة عليه وهو متعبٌ مشتت، لا يشعر بحلاوة الذكر ولا حضور الدعاء.

يا أخي، يُروى أن حاجًّا كان يطوف معظم الليل، ويُقلّل من النوم والطعام، فلما جاءت أيام المشاعر اشتد عليه التعب حتى عجز عن التركيز في الدعاء بعرفة، وبالمقابل كان معه رجلٌ آخر أكثر توازنًا؛ يعبد الله بنشاط، ويأخذ من الراحة ما يعينه، ويحافظ على هدوئه وذكره، فلما عادوا قال الأول: ظننت أن كثرة الحركة هي العبادة، ثم اكتشفت أن العبادة الحقيقية تحتاج قلبًا حاضرًا لا جسدًا منهكًا، فالراحة تكون عبادة إذا صلحت النية، لأن الراحة في الحج ليست تقصيرًا إذا كانت لأجل التقوّي على الطاعة، فالنوم الذي يعينك على القيام بخشوع، والطعام الذي يقوّي جسدك للطواف والسعي، والهدوء الذي يحفظ أعصابك في الزحام، كلها قد تتحول إلى عبادة بالنية الصالحة، جاء عن بعض السلف يقول: "إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي".

أيها المبارك، حين يرهق الإنسان نفسه، يضيق صدره سريعًا، ويغضب من الزحام، وربما أساء لمن حوله دون أن يشعر، أما الحاج المتوازن، فإنه أهدأ نفسًا، وأحسن خُلقًا، وأكثر قدرة على الصبر والابتسامة وخدمة الآخرين، وهذا من أعظم مقاصد الحج والعمرة؛ فالحج ليس بكثرة الأعمال فقط، بل هو تهذيبُ أخلاق، وتربيةُ روح.

وحتى يحقق الحاج والمعتمر توازنه، عليه: أن ينظم أوقات عبادته وراحته، وأن يقدّم الفرائض والواجبات على النوافل المرهقة، وأن يحرص على النوم الكافي خاصة قبل أيام المشاعر، وأن يشرب الماء الكافي ويتغذى جيدًا ليحفظ قوته، وأن يبتعد عن التكلف والمبالغة التي تؤدي للإنهاك، وأن يتذكر أن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل.

فيا ضيف الرحمن، لا تجعل همّك كثرة الحركة، بل صدق الحضور مع الله، فقد يسبقك إلى القبول رجلٌ أقل منك عملًا، لكنه أهدأ قلبًا، وأحسن خُلقًا، وأكثر توازنًا، فخذ من الراحة ما يعينك، ومن الذكر ما يحيي قلبك، ومن الصحبة الصالحة ما يثبتك، فالحج رحلةُ عبادة، لكن العبادة الموفقة هي التي تبني الإنسان ولا تُنهكه.

- **وقفة مع النفس**

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس الثالث والعشرون: حسن الخلق وضبط النفس

ما أعظم أن يجتمع ملايين المسلمين في مكان واحد، بقلوب تتجه إلى قبلة واحدة، وألسنة تلهج بذكر رب واحد، وغايةٍ واحدة هي طلب رضا الله، لكن الأجمل من اجتماع الأجساد هو اجتماع القلوب، فالحج ليس رحلة عبادات تؤدى بالجوارح فقط، بل مدرسة تربوية عظيمة تهذب النفس، وتعلم الإنسان حسن الخلق، وضبط الانفعال، واحترام الآخرين، وتغرس في القلب معنى وحدة الأمة الإسلامية، قال الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٩٧)، تأمل الآية، حيث نهى الله عن الجدال والفسوق في الحج، لأن المقصود ليس أداء المناسك فقط، بل تربية القلب والأخلاق.

أيها الحاج، يواجه المسلم في الحج مواقف كثيرة قد تستفز النفس من: زحام شديد، وتعب وإرهاق، واختلاف طبائع الناس، وربما أخطأ عليك أحد أو دفعك أو ضايقك، هنا يظهر الامتحان الحقيقي: هل ستغضب لنفسك؟ أم ستتذكر أنك في عبادة؟، فضبط النفس من أعظم الدروس التي يتعلمها الحاج، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ليسَ الشَّديدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّديدُ الَّذي يملِكُ نفسَه عندَ الغَضبِ" رواه البخاري، فالقوة الحقيقية ليست في ارتفاع الصوت، بل في قدرة الإنسان على التحكم في نفسه.

أيها المبارك، إن أعظم زاد يتزود به الحاج والمعتمر في رحلته: حسن الخلق، لأنه من أعظم ما يقرب العبد إلى الله، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ما من شيءٍ يُوضَعُ في المِيزانِ أثْقلُ من حُسْنِ الخُلُقِ، وإنَّ صاحِبَ حُسنِ الخلُقِ ليَبلُغُ بِهِ درَجةَ صاحِبِ الصَّومِ والصلاةِ" رواه أبوداود، ولهذا كان السلف يعدّون الحج الحقيقي هو الحج الذي يغيّر أخلاق الإنسان بعد رجوعه، وقد سُئل الحسن البصري عن الحج المبرور فقال: "أن ترجع زاهدًا في الدنيا، راغبًا في الآخرة، حسن الخلق مع الناس".

يا أخي، حين ترى كبار السن والضعفاء والمرضى في المشاعر، تدرك أن من أعظم الأخلاق الرحمة بالناس، فكم من حاج أعانه آخر بكلمة طيبة، أو بسقيا ماء، أو بإفساح طريق، فكانت عند الله أعظم من أعمال كثيرة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " الرَّاحِمونَ يرحَمُهم الرَّحمنُ تبارَك وتعالى؛ ارحَموا مَن في الأرضِ يرحَمْكم مَن في السَّماءِ " رواه أبوداود، فالابتسامة في الزحام، والصبر على الناس، والعفو عن أخطائهم، كلها عبادات قد يغفل عنها كثيرون، فما أجمل أن يشعر الحاج أنه جزء من أمة كبيرة، لا فرد يعيش وحده.

أيها المبارك، ومن أعظم مشاهد الحج أن ترى المسلمين من كل الألوان واللغات والبلدان يجتمعون في مكان واحد، يعبدون ربًا واحدًا، هذا من إفريقيا، وذاك من آسيا، وآخر من أوروبا، كل الجميع يقولون: "لبيك اللهم لبيك"، فالحج يربي المسلم على أن الأمة أكبر من الحدود والجنسيات والانتماءات الضيقة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢)، لكن المؤلم أن يأتي بعض الناس إلى أعظم مواسم الطاعة

ثم ينشغل بالخصومات والجدال والانتقاص من الآخرين، وينسى أن الحج فرصة لتطهير القلب، لا لتغذيته بالأحقاد، والمؤمن يسمو فوق الخصومات الصغيرة، ويبحث عن سلامة قلبه، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾ (الحجر: ٤٧).

فيا ضيف الرحمن، ليس النجاح في الحج أن يكمل الإنسان المناسك فقط، بل أن يعود أكثر حلمًا، وألين قلبًا، وأرحم بالناس، فإذا عاد الحاج وما زال سريع الغضب، سيئ الخلق، مليئًا بالضغائن، فقد فاته من أسرار الحج الشيء العظيم، تذكر أن الله لم يجمعكم لتتنافسوا في الدنيا، بل لتتعلموا معنى الأخوة والمحبة، فما أجمل أن تعود من الحج وقد طهرت المناسك جسدك، وطهرت الأخلاق قلبك، وأصبحت أقرب إلى الله برحمتك بالناس وحسن تعاملك معهم.

- **وقفة مع النفس**

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس الرابع والعشرون: الالتزام بالأنظمة والقوانين

من يتأمل رحلة الحج يجد أنها ليست عبادة روحية فقط، بل مدرسة عظيمة تُربي الإنسان على النظام، والانضباط، واحترام التعليمات، والالتزام بما فيه مصلحة الناس وسلامتهم، فالحاج منذ لحظة إحرامه يتحرك وفق أوقات محددة، ومناسك مرتبة، وتعليمات دقيقة، لا يقدّم فيها ولا يؤخر إلا وفق ما شرعه الله، وكأن الحج يعلّم الإنسان أن الحياة لا تستقيم بالفوضى، وإنما بالالتزام والطاعة الواعية، قال الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٦)، فالإتمام لا يكون بالفوضى بل بالانضباط والحرص على أداء المناسك كما أمر الله.

أيها الحاج، هل سألت نفسك: لماذا هذا التنظيم العظيم في الحج؟، والجواب: لو تُرك الحج بلا أنظمة ولا تعليمات لتحول إلى فوضى تؤذي الناس وتعرّض حياتهم للخطر، لكن من رحمة الله أن جعل للحج ترتيبًا دقيقًا؛ أوقات محددة، ومسارات منظمة، وتعليمات تحفظ الأرواح والحقوق، وفي هذا رسالة تربوية عظيمة: أن احترام النظام ليس تقييدًا للإنسان، بل حماية له ولغيره.

ومن المؤسف أن بعض الناس يظن أن الالتزام بالأنظمة أمر إداري فقط، بينما الحقيقة أن الإسلام ربّى المسلم على الانضباط والطاعة في كل شيء، فنحن نصلي في أوقات محددة، ونصوم في شهر محدد، ونقف بعرفة في يوم محدد، ونرمي الجمرات في أوقات

محددة، ولو غيّر الناس المواقيت والأعمال حسب أهوائهم لاختلت العبادة، قال الله تعالى عن الصلاة: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ (النساء: ١٠٣).

أيها المبارك، حين يلتزم الحاج بالتعليمات فإنه لا يحمي نفسه فقط، بل يحفظ أرواح الآخرين وراحتهم، فالالتزام بمواعيد التفويج، وتنظيم الحركة، وعدم التدافع، واحترام المسارات، كلها أخلاق إسلامية قبل أن تكون تعليمات تنظيمية، قال صلى الله عليه وسلم: " المُسلِمُ مَن سَلِمَ المُسلِمونَ مِن لسانِه ويَدِه" رواه البخاري، ومن أعظم السلامة ألا تؤذي الناس بالفوضى أو الاستهتار أو بمخالفتك للتعليمات.

يا أخي، الحج يعلمنا احترام المسؤولية، فأنت في الحج ترى رجال الأمن، والأطباء، والمنظمين، والمتطوعين يعملون ليل نهار لخدمة الحجاج، واحترام تعليماتهم جزء من التعاون على الخير، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (المائدة: ٢)، فليس من الحكمة أن يعمل الجميع من أجل سلامة الحجاج ثم يأتي بعض الناس ليخالف الأنظمة بدافع العجلة أو العناد أو حب التميز.

أيها الحاج، بعض الناس يظن أن الالتزام بالنظام تقييد للحرية، بينما الحقيقة أن النظام هو الذي يحفظ الحقوق ويمنع الفوضى، فالطريق المنظم يحمي الناس، والإشارة المرورية تحفظ الأرواح، والطابور يمنع الظلم، والتعليمات تحفظ المصلحة العامة.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه شديد الحرص على النظام وحفظ حقوق الناس، لأن الفوضى تفتح أبواب الأذى والفساد، والسؤال هنا: هل تعلمنا الانضباط بعد الحج؟، هل نلتزم بالنظام في حياتنا كما التزمنا به في الحج؟، هل نحترم الأنظمة في الطرقات، وفي العمل، وفي المواعيد، وفي الحقوق العامة؟.

يا أخي، إن من أجمل آثار الحج أن يعود الإنسان أكثر انضباطًا واحترامًا للنظام، لأنه أدرك أن الالتزام جزء من أخلاق المسلم، فحين يرى الناس مسلمًا منظمًا، ملتزمًا، يحترم التعليمات، ويحافظ على حقوق الآخرين، فإنهم يرون جمال الإسلام عمليًا، أما الفوضى والاستهتار وإزعاج الناس، فهي تشوه صورة المسلم وإن كان صاحبها كثير العبادة.

فيا ضيف الرحمن، لقد عشت في الحج أعظم صورة للنظام الجماعي المنظم، فرأيت كيف تجتمع الملايين في عبادة واحدة رغم اختلاف لغاتهم وألوانهم، لذا فاحمل هذا الدرس معك بعد العودة، وكن إنسانًا يحترم النظام، ويحافظ على الحقوق، ويحرص على سلامة الناس ومصالحهم.

- **وقفة مع النفس**

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس الخامس والعشرون: الابتعاد عن الشعارات والخلافات

ما أعظم أن يجتمع ملايين المسلمين في مكان واحد، بلباس واحد، ونداء واحد، وغاية واحدة: "لبيك اللهم لبيك"، فالحج من أعظم مظاهر وحدة الأمة الإسلامية، حيث تذوب الفوارق، وتسقط الشعارات الأرضية، وتعلو راية العبودية لله وحده، ولهذا كان من المؤلم أن يحاول بعض الناس تحويل هذه العبادة العظيمة إلى ساحة للشعارات، أو الخصومات السياسية، أو النعرات الحزبية، أو الدعوات التي تفرق المسلمين وتشغلهم عن روح الحج وحقيقته، فالحج لم يُشرع ليكون موسم صراع وخصام، بل موسم عبادة وخضوع واجتماع قلوب على طاعة الله، قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ (الحج: ٢٧)، فالدعوة كانت إلى الحج لله، لا إلى الشعارات والانقسامات.

أيها الحاج، هل سألت نفسك: لماذا جاء الحجاج إلى مكة؟، فالمسلمون لم يأتوا من مشارق الأرض ومغاربها ليتجادلوا أو يتنازعوا أو يرفعوا شعارات الدنيا، بل جاءوا ليقفوا بين يدي الله، ويطلبوا رحمته ومغفرته، جاءوا ليطوفوا بالكعبة، ويبكوا في عرفات، ويرفعوا أكف الدعاء، لا ليحولوا المشاعر المقدسة إلى ساحات توتر وفرقة، قال الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٩٧)، تأمل قوله: (ولا جدال في الحج)، لأن الجدال والصراعات تفسد صفاء القلوب، وتبعد الناس عن روح العبادة.

أيها المبارك، الحج يعلّمنا أن راية المسلم هي التوحيد، ففي الحج تختفي رايات البشر، ويبقى شعار واحد فقط: "لبيك اللهم لبيك"، فلا فضل لحزب، ولا لجنسية، ولا لقومية، وإنما الفضل بالتقوى والطاعة، قال النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: " يا أَيُّها الناسُ إنَّ ربَّكمْ واحِدٌ ألا لا فضلَ لِعربِيٍّ على عجَمِيٍّ ولا لِعجَمِيٍّ على عربِيٍّ ولا لأحمَرَ على أسْودَ ولا لأسودَ على أحمَرَ إلَّا بالتَّقوَى إنَّ أكرَمكمْ عند اللهِ أتْقاكُمْ " رواه البيهقي، عندما سمع صلى الله عليه وسلم الدعاوى إلى العصبية القبلية بين المهاجرين والأنصار قال: " دَعوها؛ فإنَّها خَبيثةٌ " رواه البخاري، فكل دعوة تثير الفرقة والبغضاء بين المسلمين تخالف روح الإسلام، وتناقض المعنى العظيم الذي يجتمع الناس لأجله في الحج.

يا أخي، إن رفع الشعارات في الحج تشتت القلوب عن العبادة، فالقلب في الحج يحتاج إلى الخشوع، والذكر، والدعاء، ومحاسبة النفس، لكن حين ينشغل الإنسان بالشعارات والصراعات والخصومات، يضيع عليه المقصود الأعظم من الحج، فما قيمة أن يصل الجسد إلى مكة بينما القلب مشغول بخصومات الناس وصراعاتهم؟، ولهذا كان السلف إذا حجوا انشغلوا بإصلاح أنفسهم قبل الانشغال بأخطاء الآخرين.

أيها الحاج، إن الأمة تحتاج إلى من يجمع لا من يفرق، فالمسلم الصادق يفرح بكل ما يجمع الأمة، ويحزن لكل ما يزيد خلافاتها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣)، فالحج من أعظم صور الاعتصام الجماعي بالله، حين تقف الأمة كلها في وقت واحد، ومكان واحد، وشعور واحد، فكيف يليق ببعض الناس أن

يفسدوا هذا المشهد العظيم بالشعارات التي تثير الأحقاد والانقسامات؟، فالحاج الحقيقي يذهب ليطهّر قلبه من الكبر، والحقد، والتعصب، لا ليزيدها اشتعالًا، كان الحسن البصري يقول: " ما زال أهل العلم يكرهون المراء والخصومات"، لأن كثرة الجدل تفسد القلوب، وتذهب نور العبادة.

فيا ضيف الرحمن، لقد جئت إلى بيت الله لتعبد الله، لا لتنشغل بصراعات البشر، أو تغيير أفكارهم، فالنصيحة لا تكون بإثارة الجماهير أو رفع الشعارات التي تؤدي إلى الفرقة والاضطراب، لذا فاحفظ قلبك من التعصب، ولسانك من إثارة الفتن، واجعل شعارك في الحج: الذكر، والدعاء، والمحبة، ووحدة المسلمين، وتذكر أن أعظم راية تُرفع في الحج ليست رايات البشر، بل راية التوحيد: لبيك اللهم لبيك، فما أجمل أن يعود الحاج من مكة وقلبه أكثر صفاءً، وأشد حبًا للمسلمين، وأبعد عن الخصومات والنعرات، مدركًا أن الأمة لا تبنى بالصراخ والفرقة، بل تبنى بالإيمان، والحكمة، ووحدة القلوب.

- **وقفة مع النفس**

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الباب الثالث

دروس ما بعد الحج والعمرة

الدرس السادس والعشرون: ماذا تغير منك بعد الحج؟

انتهت أيام الحج، وانقضت لحظات الطواف والسعي وعرفات ومزدلفة، وعاد الحجاج إلى بيوتهم، لكن السؤال الحقيقي الذي ينبغي أن يسأله كل حاج لنفسه ليس: كم صورة التقطت؟، ولا كم مشقة تحملت؟، بل السؤال الأهم: ماذا تغيّر في قلبي بعد الحج؟، فالحج ليس رحلة تنتهي بالعودة إلى الوطن، بل بداية ميلاد جديد للروح، وتحول عميق في العلاقة مع الله، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق رجعَ كيومِ ولدتهُ أمُّه" رواه البخاري، أي يعود نقيًّا من الذنوب، والعبرة الحقيقية: هل حافظ على هذا النقاء بعد الحج؟.

أيها الحاج، كثير من الناس يعودون من الحج بأمتعة جديدة، وهدايا متعددة، لكن القليل من يعود بقلب جديد، لأن الحج المبرور يترك أثره الواضح على صاحبه؛ في صلاته، وفي أخلاقه، وفي كلامه، وفي نظرته إلى الدنيا، فهل أنت منهم؟، كان السلف يقولون: "علامة قبول الحسنة أن تتبعها حسنة بعدها"، فإذا رأيت نفسك بعد الحج أقرب إلى الطاعة، وأبعد عن المعصية، فهذه بشارة خير.

أيها المبارك، اسأل نفسك: ماذا ينبغي أن يتغير بعد الحج؟، وجوابه عدة أمور:

أولها: علاقتك بالله، فأول ما ينبغي أن يتغير هو قربك من الله، فبعد أن ذقت لذة الدعاء في عرفات، والذكر في الطواف، والدموع عند الكعبة، تمسك بها، وحافظ عليها، قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر: ٩٩)، فالحج ليس موسمًا مؤقتًا للطاعة، بل محطة تقويك لتكمل الطريق إلى الله.

ثانيها: أخلاقك مع الناس، لأن من علامات الحج المبرور أن يصبح الإنسان أرحم وأهدأ وأحسن خلقًا، فالحاج الذي تعلم الصبر في الزحام، والرفق بالناس، وكظم الغيظ، لا يليق به أن يعود سريع الغضب سيئ المعاملة.

ثالثها: نظرتك إلى الدنيا، فقد رأيت الملايين بثياب متشابهة، ونمت على الأرض، وشاهدت كيف تزول الفوارق بين الناس، فهل خفّ تعلقك بالمظاهر؟، هل أدركت أن الدنيا أصغر مما كنت تظن؟، كان عمر بن عبد العزيز يقول: "إن الدنيا ليست بدار قراركم" (الزهد لابن أبي الدنيا)، والحج يعلّم الإنسان هذه الحقيقة عمليًا.

رابعها: ترك الذنوب القديمة، لأن الحج فرصة عظيمة لفتح صفحة جديدة، فما أجمل أن يعود الحاج وقد أغلق أبوابًا كانت تبعده عن الله؛ باب الغفلة، وباب المعصية، وباب رفقة السوء.

يا أخي، ومن علامات الحج المبرور أن يبقى أثر الطاعة في حياة الإنسان بعد رجوعه، وأن يصبح القلب أسرع إلى الصلاة والدعاء والقرآن، وأن يبتعد القلب عن القسوة والكبر والخصومات، وأن يزداد حبه للخير وللناس، وأن يزداد رحمة وتواضعًا وإحسانًا، وأن يشعر أن الذنب أصبح ثقيلًا على قلبه بعد الحج، لكن من أخطر الأمور أن يعود الإنسان بعد الحج كما كان، أو أسوأ من ذلك أن يعود إلى الذنوب نفسها بلا توبة صادقة، فالحاج الناجح لا يودّع الطاعة بعد انتهاء المناسك، بل يحمل روح الحج معه إلى بيته وعمله وأسرته.

فيا ضيف الرحمن، اجلس مع نفسك بعد الحج واسألها بصدق: ماذا تغيّر فيّ؟، هل أصبحت أقرب إلى الله؟، هل رقّ قلبي؟، هل تحسنت أخلاقي؟، هل خفّ تعلقي بالدنيا؟، فإن وجدت أثر الطاعة في قلبك فاحمد الله، فهذه من علامات الخير، وتذكر دائمًا أن الحج المبرور ليس كلمات تُقال، بل حياة تتغير، وقلب يولد من جديد، وروح تعود إلى الله أكثر حبًا وخشوعًا وإنابة.

- وقفة مع النفس

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس السابع والعشرون: المحافظة على روح الحج

عندما عاد الحجاج والمعتمرون إلى بلدانهم وبيوتهم وأعمالهم، انطفأت أصوات التلبية، وفرغت منى وعرفات ومزدلفة منهم، بقي السؤال يتردد في قلوبهم طويلًا: كيف أحافظ على روح الحج بعد العودة؟، فليس النجاح الحقيقي أن يبكي الإنسان في عرفات فقط، بل أن يبقى أثر عرفات في قلبه بعد الحج، وليس المقصود أن يعيش أيامًا جميلة في مكة ثم يعود كما كان، بل أن يحمل نور تلك الرحلة معه إلى بقية عمره، فالحج ليس محطة عابرة، بل بداية طريق جديد مع الله، قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر: ٩٩)، فالطاعة لا تنتهي بانتهاء الموسم، وإنما المؤمن يثبت على طريق الله حتى يلقى ربه.

أيها الحاج، هل سألت نفسك ما معنى روح الحج؟، فروح الحج ليست في الملابس البيضاء، ولا في كثرة الصور والذكريات، بل في تلك المشاعر التي عشتها هناك: خشوعك عند الكعبة، دمعتك في عرفات، سكينتك في مزدلفة، تضرعك في الدعاء، وشعورك أنك قريب من الله أكثر من أي وقت مضى، فإذا عدت من الحج وبقي قلبك مشتاقًا للطاعة، خائفًا من المعصية، محبًا للخير، فهذه روح الحج الحقيقية.

أيها المبارك، وحتى تحافظ على روح الحج بعد العودة، عليك بالتالي:

أولا: حافظ على الصلاة، فهي أعظم ما يحفظ روح الحج في القلب، إذ كيف يذوق الإنسان لذة الوقوف بين يدي الله في المشاعر، ثم يضيّع الصلاة بعد عودته؟، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥)، كان عبد الله بن مسعود يقول: " من سرّه أن يلقى الله غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات" رواه مسلم، فالصلاة هي الحبل الذي يبقي القلب متصلًا بالله بعد الحج.

ثانيا: لا تهجر القرآن بعد أن رقّ قلبك، ففي الحج تلين القلوب، وتصبح آيات القرآن أقرب إلى الروح، فاحذر أن يعود قلبك إلى القسوة بعد الرجوع، واجعل لك وردًا يوميًا من القرآن، ولو قليلًا، فالقرآن هو الوقود الذي يحفظ الإيمان حيًا في القلب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩).

ثالثا: ابتعد عن الذنوب القديمة، فمن المؤلم أن يعود بعض الناس بعد الحج مباشرة إلى المعاصي نفسها التي كانوا عليها قبل السفر، وكأن الحج كان لحظات عابرة لا أثر لها!، لأن من علامات قبول الحج أن يكره الإنسان الذنب بعده، وأن يشعر أن العودة إلى المعصية خيانة لتلك الدموع التي ذرفها عند الكعبة، قال بعض السلف: " ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وعقوبة السيئة السيئة بعدها".

رابعا: احرص على صحبة صالحة تحفظ قلبك، فبعد الحج يحتاج الإنسان إلى بيئة تعينه على الثبات، وصديق صالح يذكرك بالله إذا غفلت، ويعينك إذا ضعفت، أما رفقة الغفلة فقد تسرق منك روح الحج شيئًا فشيئًا، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " المرءُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم مَن يُخاللُ " رواه أبوداود.

خامسا: لا تجعل أجمل أيامك خلفك، فبعض الناس يتحدث عن الحج بحنينٍ فقط، وكأنه يقول: كانت أجمل أيام وانتهت، لكن المؤمن الحقيقي يجعل الحج بداية أجمل أيامه، لا نهايتها، فإذا كنت قريبًا من الله في مكة، فلماذا لا تكون قريبًا منه في بيتك؟، وإذا كنت تبكي في الدعاء هناك، فلماذا لا تناجي ربك هنا؟، إن رب الكعبة هو رب كل مكان.

سادسا: أكثر من ذكر الله، ففي الحج كان لسانك رطبًا بالتلبية والذكر والدعاء، فلا تحرم نفسك من هذا الخير بعد العودة، فالذكر يحفظ القلب من الغفلة، قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨)، وكم من إنسان فقد حرارة الإيمان لأنه انشغل بالدنيا حتى جفّ لسانه من ذكر الله.

سابعا: تذكر الموت والآخرة، فالإحرام، والزحام، واجتماع الناس، كلها كانت تذكرك بالآخرة، فلا تدع الدنيا تسحبك مرة أخرى إلى الغفلة الكاملة، فالمؤمن يعيش دائمًا بين خوف ورجاء، لا يأمن مكر الله ولا ييأس من رحمته.

ثامنا: تذكر أن الاستقامة ليست عصمة، فقد يضعف الإنسان أحيانًا بعد الحج، وقد يقع في التقصير، لكن المهم ألا يستسلم، فالاستقامة ليست أن تكون بلا خطأ، بل أن تعود سريعًا إلى الله كلما تعثرت، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

تاسعا: اجعل للحج أثرًا في أخلاقك، فالحج الحقيقي يظهر في المعاملة؛ في رحمتك بأهلك، وصبرك على الناس، وصدقك، وأمانتك، وحلمك عند الغضب، فإذا تحسنت أخلاقك بعد الحج، فهذه من أعظم بشائر القبول.

فيا ضيف الرحمن، لا تودع روح الحج عند أبواب مكة، بل خذها معك أينما ذهبت، خذ معك قلبًا عرف طريقه إلى الله، وعينًا دمعت من خشيته، وروحًا ذاقت لذة القرب منه، فإن حافظت على الصلاة، والذكر، والقرآن، وصحبة الصالحين، والبعد عن الذنوب، بقي نور الحج حيًا في قلبك.

- **وقفة مع النفس**

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس الثامن والعشرون: كن قدوة للآخرين

حين يعود الحاج والمعتمر من رحلته الإيمانية، لا يعود شخصًا عاديًا كما كان قبلها، بل يعود وقد حمّله الله مسؤولية عظيمة؛ مسؤولية الاقتداء، بأن يرى الناس في أخلاقه أثر الطاعة، وفي سلوكه نور العبادة، وفي معاملته جمال الدين، فالحج ليس مجرد لقب يُقال، ولا صورة تُعلّق، ولا ذكريات تُروى، بل رسالة يعيشها الإنسان بعد عودته، ولهذا كان الناس قديمًا إذا رأوا رجلًا عاد من الحج قالوا: هذا رجل حج بيت الله، فيطلبون منه الاستغفار لهم، ثم ينظرون إلى أخلاقه وصلاته وكلامه، لأنهم كانوا يرون أن الحج الحقيقي يظهر أثره على صاحبه.

أيها الحاج، تذكر أن الناس يراقبونك أكثر من غيرك، لأن الحاج بعد عودته يصبح في نظر الناس ممثلًا لما تعلّمه في تلك الرحلة المباركة، فإذا رأوه حسن الخلق، صادقًا، متواضعًا، محافظًا على الصلاة، أحبوا الطاعة وتأثروا به، أما إذا عاد كما كان أو أسوأ، فقد يصدّ الناس عن الخير من حيث لا يشعر، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ (فصلت: ٣٣)، فأعظم دعوة إلى الله ليست بالكلام فقط، بل بالسلوك الحسن والقدوة الصادقة.

أيها المبارك، في الحج يتعلّم المسلم الصبر، وضبط النفس، والرحمة، والذكر، والتواضع، والبعد عن الجدال والأذى، فكيف يليق به بعد ذلك أن يعود سريع الغضب، سيئ

المعاملة، مهملًا للطاعة؟، فالناس لا يريدون أن يسمعوا عن قصص وروايات الحج فقط، بل يريدون أن يروا أثره حيًا فيمن حج، لذا ربما كان التزام الحاج بالأخلاق بعد رجوعه أعظم أثرًا من كثير من الكلمات والخطب.

يا أخي، ولكي يكون الحاج قدوة لغيره من الناس، عليه أن يصبح:

أولا: حسن الخلق، لأن الناس قد ينسون كثيرًا من الكلام، لكنهم لا ينسون الأخلاق، فالحاج القدوة هو الذي: يرحم الصغير، ويحترم الكبير، ويعفو عند الخطأ، ويصدق في حديثه، ويحفظ لسانه، قال صلى الله عليه وسلم: " إنَّ مِن أحبِّكم إليَّ وأقربِكُم منِّي مجلسًا يومَ القيامةِ أحاسنَكُم أخلاقًا، وإنَّ مِن أبغضِكُم إليَّ وأبعدِكُم منِّي يومَ القيامةِ الثَّرثارونَ والمتشدِّقونَ والمتفَيهِقونَ، قالوا: يا رسولَ اللَّهِ، قد علِمنا الثَّرثارينَ والمتشدِّقينَ فما المتفَيهقونَ؟ قالَ: المتَكَبِّرونَ " رواه الترمذي، فما أجمل أن يكون الحاج داعية إلى الله بأخلاقه قبل كلامه.

ثانيا: محافظ على الطاعات، وهي أعظم رسالة حين يرى الأولاد أو الأهل أو الجيران أن الحاج بعد رجوعه أصبح أكثر محافظة على الصلاة، وأكثر تعلقًا بالقرآن، وأكثر ذكرًا لله، فإن هذا يترك أثرًا عظيمًا في القلوب، أما إذا عاد إلى الغفلة والتقصير سريعًا، فقد يضعف أثر الحج حتى في نفوس من حوله.

يُروى أن رجلًا عاد من الحج، وكان قبل سفره شديد العصبية، سريع الغضب، فلما رجع تغيّر كثيرًا، وعندما أخطأ أحد أولاده، سكت وابتسم، فقال له ابنه متعجبًا: "يا أبي، كنت تغضب على أقل من هذا!"، فقال الأب:" لقد عاهدت الله بعرفة أن أتغير، واستحييت أن أعود كما كنت"، يا لها من كلمة عظيمة، هذا هو الحج الحقيقي؛ أن تغيّر العبادة قلب الإنسان وتعاملاته.

فيا ضيف الرحمن، لقد شرّفك الله بزيارة بيته، فلا تجعل أثر هذه الرحلة يتوقف عند الذكريات، كن قدوة في صلاتك، وقدوة في أخلاقك، وقدوة في رحمتك بالناس، وقدوة في ثباتك على الطاعة، واجعل من حجك بداية حياة أجمل، يرى الناس فيها أثر القرب من الله، كان الإمام مالك يقول: "حال رجل في ألف رجل خير من كلام ألف رجل لرجل"، أي أن السلوك الصادق أبلغ من كثرة الكلام، فالحاج حين يلتزم بالأخلاق والطاعة يصبح دعوةً متحركة إلى الله.

- وقفة مع النفس

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس التاسع والعشرون: الحذر من نقل السلبيات

ما أجمل أن يعود الحاج من رحلته المباركة وهو يحمل قلبًا يملؤه نور الإيمان، ولسانًا يلهج بحمد الله، وحديثًا يبعث الشوق إلى بيت الله في قلوب الناس، لكن المؤلم أن يعود بعض الحجاج فلا يحدث الناس إلا عن الزحام، أو الأخطاء، أو التعب، أو التقصير من بعض العاملين أو من تصرفات بعض الحجاج، حتى تتحول أعظم عبادة في الإسلام إلى صورة ذهنية منفّرة في نفوس السامعين، فالحج عبادة عظيمة، والبشر مهما اجتهدوا يبقى منهم الخطأ والتقصير، والمؤمن الواعي لا يجعل السلبيات المحدودة تطغى على البحر العظيم من الإيجابيات، قال صلى الله عليه وسلم: " من صُنِعَ إليه معروفٌ، فليجزَ بهِ، فإن لم يجدْ ما يجزِي به، فليثنِ عليهِ، فإنه إذا أثْنَى عليهِ، فقد شكرهُ، وإن كتمهُ، فقد كفرهُ " رواه أبوداود.

أيها الحاج، هل سألت نفسك: لماذا نحذر من تضخيم السلبيات؟، والجواب: لأن بعض الناس قد يسمع من الحاج وصفًا مليئًا بالشكاوى والانتقادات، فيدخل إلى قلبه النفور من الحج أو الخوف المبالغ فيه منه، وربما حُرم شخص من الشوق إلى بيت الله بسبب كلمات سلبية كان يمكن أن تُقال بطريقة أرحم وأعدل، قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣)، فالمؤمن ينتقي كلماته، خاصة حين يتحدث عن شعائر عظيمة تهفو إليها قلوب المسلمين.

أيها المبارك، من الطبيعي أن يوجد في الحج تعب أو زحام أو مواقف صعبة، لأن ملايين البشر يجتمعون في زمان ومكان محدودين، لكن العاقل ينظر إلى الصورة الكبرى؛ ينظر

إلى نعمة الوصول إلى بيت الله، وإلى الأمن والتنظيم والخدمات الهائلة، وإلى الجهود الكبيرة التي تُبذل لخدمة الحجاج، أما التركيز الدائم على الأخطاء الصغيرة ونشرها بين الناس، فقد يقتل معاني الشكر والإنصاف، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم: ٧)، فليس من العدل أن يرى الإنسان آلاف من صور الخير ثم لا يتحدث إلا عن موقف سلبي واحد، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨)، فالإنصاف خُلُق عظيم، والمؤمن لا يكون أسيرًا للحظة غضب أو موقف عابر.

يا أخي، علينا الحذر من إشاعة السلبية بين الناس، فبعض الناس ينقل السلبيات بطريقة فيها تهويل وسخرية وتذمر مستمر، حتى تصبح المجالس مليئة بالشكوى بدل الحديث عن معاني الإيمان والطاعة، وهذا قد يضعف هيبة الشعائر في قلوب السامعين، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " مَن كانَ يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فليَقُلْ خَيرًا أو ليصمُتْ "رواه مسلم، فليس كل ما يُرى أو يُسمع ينبغي نشره بين الناس، خاصة إذا كان لا يحقق مصلحة وإنما ينشر التذمر والإحباط.

أيها الحاج، لا تنسَ جهود الدولة السعودية في خدمة الحجاج والمعتمرين، حيث أنها سخرت كافة طاقاتها البشرية من آلاف الجنود والأطباء والعاملين والمتطوعين الذين يسهرون لخدمة ضيوف الرحمن، وكلها تدار وفق خطط استراتيجية متكاملة، معتمدة على برامج ومبادرات متطورة ترتقي بجودة الخدمات المقدمة للحجاج والمعتمرين، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " لا يَشْكُرُ اللهَ مَن لا يَشْكُرُ الناسَ "رواه أبوداود، فالشكر والاعتراف بالفضل لهذه الدولة المباركة من أخلاق المؤمنين.

فيا ضيف الرحمن، كن سفيرًا جميلًا لهذه العبادة العظيمة، وانقل للناس نور الإسلام وجهود القيادة السعودية وشعبها في خدمة ضيوف الرحمن، ومستوى جودة الخدمات المقدمة، من تهيئة وتوسعة الحرمين الشريفين، وتسهيل إجراءات الوصول للمملكة، وتطوير المواقع الإسلامية والتاريخية، وتجهيز المستشفيات والمراكز الصحية بأحدث التقنيات، وتوظيف الذكاء الاصطناعي وأنظمة الاتصالات في إدارة الحشود، واجعلها تجربة مميزة فريدة وذكرى لا تنسى.

- **وقفة مع النفس**

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الدرس الثلاثون: وحدة الأمة الإسلامية

إن من أعظم مشاهد الحج، حين تجتمع فيه وجوه من كل ألوان الأرض، وألسنة من كل لغات الدنيا، وقلوب جاءت من مشارق الأرض ومغاربها، وهي جميعًا تتجه إلى قبلة واحدة، وتردد نداءً واحدًا: "لبيك اللهم لبيك"، هناك يدرك المسلم أن الإسلام لم يجمع الناس على لونٍ ولا وطنٍ ولا عِرق، بل جمعهم على عقيدة واحدة، ورب واحد، ونبي واحد، وكتاب واحد، لأن الحج ليس مجرد عبادة فردية، بل مؤتمر إيماني عالمي يعلّم المسلم معنى الانتماء الحقيقي للأمة الإسلامية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢).

أيها الحاج، في حياتنا الدنيا قد يعتز الإنسان ببلده أو لغته أو قبيلته، لكن الحج يعلّمه أن رابطة الإيمان أعظم من كل الروابط الأخرى، فهذا الإفريقي يقف بجوار الآسيوي، وذاك العربي يدعو مع الأوروبي، والجميع يلبسون لباسًا واحدًا، ويؤدون مناسك واحدة، ويقفون في عرفات بقلوب متشابهة، وكأن الحج يقول للبشرية كلها: إن الإسلام جمع ما فرّقته الدنيا، قال النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: " يا أيُّها الناسُ إنَّ ربَّكمْ واحِدٌ ألا لا فضلَ لِعربِيٍّ على عجَمِيٍّ ولا لِعجَمِيٍّ على عربِيٍّ ولا لأحمَرَ على أسْوَدَ ولا لأسودَ على أحمَرَ إلَّا بالتَّقوَى إنَّ أكرَمكمْ عند اللهِ أتْقاكُمْ " رواه أبونعيم.

أيها المبارك، حين ترى حاجًا مريضًا فيقوم آخر بمساعدته وهو لا يعرف لغته، أو شيخًا كبيرًا يسنده شاب من بلد بعيد، تدرك أن الأخوة الإسلامية ليست شعارًا، بل شعور حي في القلوب، قال النبي صلى الله عليه وسلم: " مثلُ المؤمنين في تَوادِّهم، وتَرَاحُمِهم، وتعاطُفِهِمْ، مثلُ الجسَدِ إذا اشتكَى منْهُ عضوٌ تداعَى لَهُ سائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى " رواه البخاري، فالمؤمن لا يعيش لنفسه فقط، بل يحمل همّ أمته، ويفرح لفرحها، ويتألم لألمها.

يا أخي، ومن دروس الحج، أن يتجاوز المسلمون خلافاتهم ومشاكلهم، ففي الحج تجتمع مدارس وثقافات وأعراق مختلفة، ومع ذلك يُطلب من الجميع أن يعيشوا بروح المحبة والرحمة والتسامح، قال الله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٩٧)، وكأن الله يريد أن يربي الأمة على ترك الخصومات التي تزرع العداوة وتشتت القلوب، فكم من خلافات صغيرة فرّقت بين المسلمين، بينما الحج يعلمهم أن ما يجمعهم أعظم بكثير مما يفرقهم.

أيها الحاج، ومن أخطر ما يفسد معنى الحج أن يعود الإنسان بعقلية التعصب أو احتقار الآخرين بسبب اللون أو اللغة أو البلد، فالإسلام لا يبني أمة بالكِبر والعنصرية، بل بالمحبة والتقوى، وقد غضب النبي صلى الله عليه وسلم حين سمع بعض الصحابة يتفاخرون بالأنساب فقال: " دَعُوها فإنَّها مُنتنةٌ " رواه البخاري، فكل دعوة تفرق المسلمين وتزرع البغضاء بينهم تخالف روح الحج ومعانيه العظيمة، فالحاج الحقيقي يعود بقلب أوسع؛ يفرح إذا رأى خيرًا للمسلمين، ويتألم إذا أصابهم ظلم أو مصيبة، فالأمة ليست أخبارًا

تُسمع فقط، بل إخوة يجمعهم الإيمان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠).

يا أخي، اسأل نفسك بعد الحج، هل بقيت روح الأمة في قلبك؟، وهل ما زلت تشعر أنك جزء من أمة كبيرة؟، وهل تدعو للمسلمين؟، وهل تحزن لأحزانهم؟، وهل تحرص على جمع الكلمة ونبذ الفرقة؟، فالحج الناجح لا يوسّع معرفة الإنسان بالعالم فقط، بل يوسّع قلبه للمسلمين جميعًا.

فيا ضيف الرحمن، لقد رأيت في الحج أمةً عظيمة اجتمعت رغم اختلاف ألوانها ولغاتها وأوطانها، فاحمل هذا المعنى معك بعد العودة، وكن داعيةً إلى الوحدة والمحبة، لا إلى الفرقة والخصام، أحب للمسلمين ما تحب لنفسك، وادعُ لهم، وارحم ضعفهم، وافرح لخيرهم، وتألّم لأوجاعهم، فما أجمل أن يعود الحاج من مكة وقلبه أكبر من حدود بلده، وأوسع من اختلافات الناس، ممتلئًا بحب أمة قال الله عنها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

- **وقفة مع النفس**

س/ ما أبرز ما تعلمته من هذا الدرس؟

س/ كيف أطبقه في حياتي؟

س/ ما العمل الذي سأبدأ به من اليوم؟

الباب الرابع

مواقف الصحابة في الحج

والدروس المستفادة منها

موقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

عن معرور بن سويد الأسدي قال: " وافَيتُ المَوسِمَ مع أميرِ المؤمنينَ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضيَ اللهُ عنه، فلمَّا انصرَفَ إلى المَدينةِ انصرَفتُ معه، فصَلَّى لنا صَلاةَ الغَداةِ، فقَرَأَ فيها: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ}، و: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ}، ثُمَّ رَأى أُناسًا يَذهَبُ مَذهَبًا، فقال: أين يَذهَبونَ هؤلاء؟ قالوا: يَأتونَ مَسجِدًا هاهُنا صَلَّى فيه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: إنَّما أهلَكَ مَن كان قَبلكم بأشْباهِ هذا؛ يَتَّبِعونَ آثارَ أنبيائِهم، فاتَّخَذوها كَنائسَ وبِيَعًا، مَن أدرَكَتْه الصَّلاةُ في شيءٍ مِن هذه المساجدِ التي صَلَّى فيها رسولُ اللهِ فليُصَلِّ فيها ولا يَتعمَّدَنَّها " رواه ابن أبي شيبة في مصنفه.

ما يستفاد من الموقف:

أولًا: أعظم مقاصد الدين حماية التوحيد، فقد كان عمر رضي الله عنه يعلم أن الانحرافات الكبرى لا تبدأ فجأة، وإنما تبدأ بخطوات صغيرة يراها الناس في أول الأمر أمورًا يسيرة، لأن الأمم السابقة لم تبدأ بعبادة الأنبياء مباشرة، وإنما بدأت بتعظيم الآثار والأماكن، ثم تطور الأمر مع مرور الزمن حتى وقعوا في الشرك، ولهذا كان عمر يحرس جناب التوحيد ويغلق كل باب قد يؤدي إلى الغلو، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (الجن:١٨).

ثانيًا: سد الذرائع من فقه الصحابة، لم يكن أولئك الناس يعبدون المكان، ولم يقصدوا الشرك، وإنما كانوا يريدون التبرك بموضع صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم، لكن عمر رضي الله عنه نظر إلى مآلات الأمور وعواقبها، فالقائد والمربي الناجح لا ينظر إلى الفعل في لحظته فقط، بل ينظر إلى ما قد يؤدي إليه مستقبلاً.

ثالثًا: الاتباع الحقيقي ليس في تتبع الأماكن، كثير من الناس يظنون أن الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم يكون بتتبع كل موضع جلس فيه أو صلى فيه، لكن عمر رضي الله عنه علّم الأمة أن الاتباع الحقيقي هو اتباع هديه وسنته وأخلاقه وعبادته، فليس المقصود أن نصلي في كل مكان صلى فيه، وإنما أن نصلي كما صلى.

رابعًا: الحذر من الغلو في الصالحين، هذا الموقف امتداد لتحذير النبي صلى الله عليه وسلم: "إياكم والغلو في الدين"، فالغلو لا يبدأ دائمًا في الأشخاص، بل قد يبدأ في الأماكن أو الآثار أو الرموز، ومن رحمة الله بهذه الأمة أن هيأ لها رجالًا كعمر يحفظون لها صفاء العقيدة.

خامسًا: فقه عمر في التربية، حيث لم يوبخ الناس، ولم يتهم نياتهم، بل بيّن لهم السبب الشرعي والتاريخي، لأن المربي الناجح لا يكتفي بمنع الخطأ، بل يشرح أسبابه وآثاره، ولهذا ربط عمر رضي الله عنه بين فعلهم وبين ما وقع للأمم السابقة.

سادسًا: الاعتبار بالتاريخ، قال عمر: "إنما أهلك من كان قبلكم..."، فالمؤمن لا يقرأ التاريخ للتسلية، وإنما للعبرة، فكم من أمة ضلت بسبب الغلو، وكم من انحراف بدأ بأمر ظنه الناس خيرًا، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ (يوسف:١١١).

سابعًا: الإسلام يحارب تقديس الأماكن بغير دليل، فالأماكن الفاضلة التي شرع الله قصدها معروفة: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، أما غير ذلك فلا يُشرع تخصيصه بعبادة أو زيارة على وجه التعبد إلا بدليل.

ثامنًا: التوازن بين المحبة والاتباع، لأن المسلم يحب النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من نفسه وولده ووالده، لكن هذه المحبة لا تدفعه إلى الابتداع أو الغلو، فالمحبة الصادقة منضبطة بالشرع، ولهذا كان الصحابة أعظم الناس حبًا للنبي صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك كانوا أبعد الناس عن الغلو.

تاسعًا: أهمية فقه المقاصد في الحج، الحج مليء بالمشاعر والأماكن والذكريات، لكن عمر رضي الله عنه يوجه الحاج إلى أن المقصود الأعظم هو عبادة الله وحده، لا الانشغال بالأماكن والآثار التي لم يشرع قصدها، فالتوحيد هو روح الحج وجوهره.

عاشرًا: ليس كل ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم يُقصد لذاته، فقد يصلي النبي صلى الله عليه وسلم في مكان اتفاقًا لا تشريعًا، ولهذا فرّق العلماء بين: الأفعال التي قصد بها التشريع، والأفعال التي وقعت بحكم العادة أو الظرف، وهذا من دقائق الفقه التي فهمها عمر رضي الله عنه.

أيها الحاج الكريم، وأنت تتنقل بين المشاعر المقدسة، تذكر أن أعظم ما جئت من أجله هو تحقيق التوحيد وتجريد العبادة لله، فلا تنشغل بالبحث عن الآثار والمواضع والقصص بقدر انشغالك بإصلاح قلبك وتعظيم ربك واتباع سنة نبيك صلى الله عليه وسلم، وتذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو من أعظم المحبين للنبي صلى الله عليه وسلم ، لم يكن يربي الناس على تعظيم الأماكن، وإنما كان يربيهم على تعظيم الله واتباع رسوله، فمن تعلم هذا الدرس العظيم عاد من الحج بقلب أكثر صفاءً، وعقيدة أكثر نقاءً، واتباعٍ أكمل لسنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

موقف الصحابة في تتبع أحواله صلى الله عليه وسلم في الحج

جاء في صحيح البخاري: " سُئِلَ أُسامةُ وأنا جالِسٌ كيفَ كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَسيرُ في حَجَّةِ الوداعِ حينَ دَفَعَ؟ قال: كان يَسيرُ العَنَقَ، فإذا وجَدَ فَجوةً نَصَّ ".

ما يستفاد من الموقف:

أولًا: الرفق من أعظم أخلاق الإسلام، كان النبي صلى الله عليه وسلم قادرًا على أن يسرع في سيره، لكنه كان بين آلاف الحجاج، فاختار السير المعتدل الذي يراعي الجميع، وهذا تطبيق عملي لقوله صلى الله عليه وسلم: "إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه" رواه مسلم، فالحج مدرسة يتعلم فيها المسلم الرفق بالناس قبل الرفق بنفسه.

ثانيًا: مراعاة مصالح الآخرين، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم ينظر إلى راحته الشخصية، بل نظر إلى حال الناس من حوله، فلو أسرع في الزحام لتضرر الضعفاء وكبار السن والنساء، وهذا يعلم الحاج أن المسلم لا يفكر في نفسه فقط، بل يراعي من حوله.

ثالثًا: النظام والانضباط من هدي النبي صلى الله عليه وسلم، حيث لم يكن سيره صلى الله عليه وسلم عشوائيًا، بل كان منظمًا بحسب الظروف، ففي الأماكن الضيقة يسير بهدوء، وفي الأماكن الواسعة يسرع باعتدال، وهذا أصل عظيم في إدارة الحشود واحترام الأنظمة والتعليمات.

رابعًا: التوازن بين الحماس والحكمة، بعض الناس يظن أن كثرة الحركة أو السرعة دليل على الحرص على العبادة، لكن النبي صلى الله عليه وسلم جمع بين النشاط والحكمة، فلم يكن بطيئًا يضيع الوقت، ولم يكن متهورًا يؤذي الناس، وهكذا المؤمن في حياته كلها.

خامسًا: حسن الخلق يظهر في الزحام، ففي أوقات الراحة يسهل على الإنسان أن يكون هادئًا، لكن الأخلاق الحقيقية تظهر عند الزحام والتعب والانتظار، ولهذا كان الحج ميدانًا عمليًا لاختبار الصبر وحسن التعامل مع الآخرين.

سادسًا: الإسلام يرفض إيذاء الناس ولو في العبادة، كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤدي أعظم عبادة، ومع ذلك لم يجعل العبادة مبررًا لإيذاء الآخرين، فكم من أخطاء تقع بسبب التدافع أو الأنانية أو الاستعجال، والسنة تعلمنا أن العبادة التي تؤذي الناس ليست هي العبادة الكاملة التي يريدها الله.

سابعًا: استثمار الفرص دون إضرار بالآخرين، قال أسامة: "فإذا وجد فجوة نصَّ"، أي إذا وجد مكانًا متسعًا أسرع، وفي هذا درس جميل: أن المسلم يستثمر الفرص المتاحة، لكن دون تعدٍ على حقوق الآخرين، فالحكمة ليست في التباطؤ دائمًا، ولا في السرعة دائمًا، وإنما في وضع كل شيء في موضعه.

ثامنًا: القيادة بالقدوة، حيث كان عشرات الآلاف ينظرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويقتدون به، فلو اندفع أو استعجل لفعل الناس مثله، لكن هدوءه وانضباطه أصبح

منهجًا للأمة كلها، وفي هذا تنبيه لكل قائد ومربٍ ومعلم بأن الناس يتعلمون من الأفعال أكثر مما يتعلمون من الأقوال.

تاسعًا: الحج يربي المسلم على الصبر، فالانتقال بين المشاعر، والزحام، والانتظار، وتغير الظروف كلها دروس عملية في الصبر، ومن لم يتعلم الصبر في الحج فاته جانب عظيم من حكمته، قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة:١٥٥).

عاشرًا: احترام الأنظمة من هدي النبوة، فلو تأملنا هذا الحديث بلغة العصر لوجدنا فيه أساسًا مهمًا من أسس السلامة والتنظيم، فالنبي صلى الله عليه وسلم راعى حركة الناس والظروف المحيطة به، ولم يتصرف بصورة فردية، ومن هنا فإن التزام الحاج بالتعليمات والتنظيمات المرعية هو في حقيقته موافقة لهدي النبي صلى الله عليه وسلم في مراعاة المصالح العامة ودفع الضرر.

أيها الحاج والمعتمر، قد تظن أن العبادة العظيمة تكون في كثرة الحركة أو الإسراع أو محاولة التقدم على الناس، لكن هذا الحديث يعلمنا أن من أعظم القربات في الحج أن تحفظ حقوق الآخرين، وأن تتحلى بالرفق والصبر وحسن الخلق، فرب حاجٍ عاد من الحج وقد تعلم كيف يضبط نفسه في الزحام، ويحترم النظام، ويراعي مشاعر الناس، فيكون هذا الدرس من أعظم ما خرج به من رحلته المباركة.

موقف ابن عباس صباح رمي جمرة العقبة الكبرى

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: " قالَ لي رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ غداةَ العقبةِ وَهوَ على راحلتِه: هاتِ القِطْ لي، فلقطتُ لَهُ حصياتٍ هنَّ حصى الخَذفِ، فلمَّا وضعتُهنَّ في يدِه، قال: بأمثالِ هؤلاءِ، وإيَّاكم والغلوَّ في الدِّين، فإنَّما أَهلَكَ من كان قبلَكمُ الغلوُّ في الدِّينِ " رواه النسائي.

ما يستفاد من الموقف:

أولًا: الإسلام دين الوسطية والاعتدال، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يطلب حجارة كبيرة، ولم يطلب المبالغة في الرمي، بل اختار حصيات صغيرة بقدر حصى الخذف، وكأن الرسالة الخالدة للأمة أن الله لا يحب الغلو ولا التشدد، كما لا يحب التفريط والتهاون، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة:١٤٣).

ثانيًا: الخطر الحقيقي يبدأ بخطوة صغيرة، العجيب أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينتظر حتى يقع الغلو، بل حذر منه قبل وقوعه، فقد يبدأ الغلو بتصرف بسيط، ثم يتوسع حتى يتحول إلى منهج وفكر وسلوك، ولهذا كان من هديه صلى الله عليه وسلم سد أبواب الانحراف قبل وقوعه.

ثالثًا: الاتباع مقدم على العاطفة، بعض الناس يظن أن زيادة المشقة أو المبالغة في العبادة دليل على قوة الإيمان، لكن النبي صلى الله عليه وسلم علّم الأمة أن العبادة الصحيحة هي ما وافق السنة، لا ما وافق المشاعر فقط، فلو كانت الحجارة الكبيرة أفضل لسبقنا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالخير كل الخير في الاتباع.

رابعًا: الغلو سبب هلاك الأمم، لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم إن الغلو خطأ فقط، بل قال: "فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين"، وما من أمة انحرفت إلا بدأ انحرافها بالمبالغة والتجاوز، فقوم نوح غلوا في الصالحين حتى عبدوهم، وأمم كثيرة شددت على نفسها حتى ضيقت ما وسعه الله، ولهذا كان الإسلام يحارب الغلو منذ بدايته.

خامسًا: الحاج يتعلم الانضباط لا الانفعال، فرمي الجمرات ليس ساحة غضب أو انتقام، وليس المقصود إيذاء الشيطان بالحجارة، فالشيطان لا يقف عند العمود حتى تصيبه الحصى، وإنما المقصود التعبد لله واتباع أمره، ولهذا كانت الحصى صغيرة، ليبقى التركيز على معنى الطاعة لا على مظاهر الانفعال.

سادسًا: التربية بالتعليم العملي، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكتف بالكلام، بل طلب الحصى بيده، ورآها الصحابة، ثم أمسكها أمامهم، ثم علّق عليها، وهذا من أعظم أساليب التربية، فالمواقف العملية تبقى في الذاكرة أكثر من الكلمات المجردة، ولهذا ظل ابن عباس رضي الله عنهما يروي هذا المشهد للأمة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.

سابعًا: عظمة التعليم في اللحظات المناسبة، كان النبي صلى الله عليه وسلم في موسم الحج، والناس منشغلون بالمناسك، ومع ذلك استثمر الموقف ليغرس أصلًا عظيمًا من أصول الدين، فالمربي الناجح يحول المواقف اليومية إلى دروس تربوية خالدة.

ثامنًا: الالتزام بالتفاصيل من كمال العبودية، قد يرى بعض الناس أن حجم الحصى أمر يسير، لكن النبي صلى الله عليه وسلم بيّن أن العبودية الحقيقية تظهر في الالتزام بما شرعه الله صغيرًا كان أو كبيرًا، فالمؤمن لا يعبد الله بعقله المجرد، وإنما يعبده وفق ما جاء به الوحي.

تاسعًا: الغلو لا يقتصر على العبادات، فالحديث وإن ورد في الحج، إلا أن معناه يشمل الحياة كلها، فالغلو قد يكون: في الحكم على الناس، أو في التدين، أو في التعامل مع الأبناء، أو في الخصومات والخلافات، والمنهج الرباني هو الاعتدال والعدل والرحمة.

أيها الحاج الكريم، وأنت ترمي الجمرات بحصيات صغيرة، تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يعلمك أن الطريق إلى الله ليس بالمبالغة ولا بالتشدد، وإنما بالاتباع والاعتدال، فاحذر من الغلو في عبادتك، واحذر من الغلو في أحكامك على الناس، واحذر من الغلو في مواقفك وآرائك، فإن أعظم ما يزين المسلم بعد الإيمان: الحكمة، والرفق، والوسطية، والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، وصدق صلى الله عليه وسلم حين قال: "إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين"

موقف الصحابة من ذبح الأضحية قبل صلاة العيد

عن جندب بن جنادة رضي الله عنه قال: " ضَحَّينا مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُضحيَةً ذاتَ يَومٍ، فإذا أُناسٌ قد ذَبَحوا ضَحاياهم قَبلَ الصَّلاةِ، فلَمَّا انصرَفَ رَآهُمُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّهم قد ذَبَحوا قَبلَ الصَّلاةِ، فقال: مَن ذَبَحَ قَبلَ الصَّلاةِ فليَذبَحْ مَكانَها أُخرى، ومَن كان لَم يَذبَحْ حتَّى صَلَّينا فليَذبَحْ على اسمِ اللهِ" رواه البخاري.

ما يستفاد من الموقف:

أولًا: الإخلاص وحده لا يكفي، حيث كان الذين ذبحوا قبل الصلاة يريدون الأجر والثواب، ولم يقصدوا مخالفة الشرع، ومع ذلك لم تُجزئهم أضحيتهم، وفي هذا درس عظيم: أن قبول العمل يحتاج إلى شرطين: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠).

ثانيًا: أهمية تعلم الأحكام قبل العمل، لو أن هؤلاء علموا وقت الذبح المشروع لما وقعوا في الخطأ، ولهذا كان السلف يقولون: "العلم قبل القول والعمل"، ومن أعظم دروس الحج والعمرة أن يتعلم المسلم المناسك قبل أدائها، فكم من أخطاء تقع بسبب الجهل لا بسبب سوء النية.

ثالثًا: العبادة توقيفية، أي أن المسلم لا يعبد الله كما يريد هو، وإنما كما شرع الله، فالوقت، والكيفية، والمكان، والعدد، كلها أمور حددها الشرع، ولذلك لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم: أنتم أردتم الخير فحسبكم ذلك، بل أمرهم بالإعادة.

رابعًا: الحرص على تصحيح الخطأ، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يترك الخطأ مجاملة لأصحابه، بل بيّن الحكم الشرعي وصحح الخطأ فورًا، وهذا من كمال نصحه للأمة، فالمربي الناجح لا يتجاهل الأخطاء، بل يصححها بالحكمة والرحمة.

خامسًا: المبادرة ليست دائمًا فضيلة، فبعض الناس ظنوا أن التعجيل بالذبح أفضل، لكن العبادة ليست قائمة على المبادرة المطلقة، بل على موافقة الشرع، فقد يكون التأخير هو المطلوب، كما في هذه المسألة، ولهذا يجب أن يكون الحماس منضبطًا بالعلم.

سادسًا: احترام الأنظمة الشرعية، الله جعل لكل عبادة وقتًا وحدودًا، فالصلاة لها وقت، والصيام له وقت، والحج له وقت، والأضحية لها وقت، ومن جمال الإسلام أنه يعلم المسلم الانضباط واحترام المواقيت.

سابعًا: الخطأ لا يمنع من تصحيحه، مع أن هؤلاء أخطؤوا، إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم فتح لهم باب التصحيح، فقال: "فليذبح مكانها أخرى"، وهذا يعلم المسلم ألا ييأس إذا أخطأ، بل يبادر إلى إصلاح خطئه، فباب التوبة والتصحيح مفتوح.

ثامنًا: تعظيم شعائر الله، إن إعادة الذبح فيها مشقة وتكلفة، لكن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قبلوا ذلك طاعة لله ورسوله، لأنهم يعلمون أن تعظيم شعائر الله مقدم على الراحة الشخصية، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج:٣٢).

تاسعًا: الانقياد للنصوص، قد يرى الإنسان بعقله أن تقديم الذبح أو تأخيره لا يغير شيئًا، لكن المؤمن الصادق ينقاد لأمر الله ولو لم يدرك الحكمة كاملة، وهذا هو معنى العبودية الحقيقية.

عاشرًا: الحج يعلمنا اتباع السنة، هذا المبدأ نفسه يحتاجه الحاج في جميع مناسكه، فليس المطلوب أن يفعل ما يراه حسنًا، بل أن يؤدي المناسك كما فعلها النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "خذوا عني مناسككم"، فنجاح الحاج ليس في كثرة اجتهاداته الخاصة، وإنما في حسن اتباعه.

أيها الحاج الكريم، كما أن الأضحية لا تُقبل قبل وقتها، فإن سائر العبادات تحتاج إلى موافقة هدي النبي صلى الله عليه وسلم، فاحرص على تعلم المناسك قبل أدائها، ولا تعتمد على العاطفة وحدها أو على ما يفعله الناس، وتذكر أن الله لا يريد منا مجرد العمل، بل يريد العمل الصالح، والعمل الصالح هو ما كان خالصًا لله، وموافقًا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

موقف الصحابة من الدعاء بعد رمي الجمرات

عَن عائشةَ أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: " أفاضَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ من آخرِ يومِهِ، ثمَّ رجعَ إلى منًى، فمَكَثَ بِها لياليَ أيَّامِ التَّشريقِ يرمي الجمرةَ، إذا زالَتِ الشَّمسُ كلُّ جمرةٍ بسبعِ حصياتٍ، يُكَبِّرُ معَ كلِّ حصاةٍ، ويقفُ عندَ الأولى، والثَّانيةِ فيطيلُ القيامَ، ويتضرَّعُ، ويرمي الثَّالثةَ ولا يقفُ عِندَها " رواه أبوداود.

ما يستفاد من الموقف:

أولًا: الحج عبادة ذكر لا مجرد حركة، لأن كثير من الناس ينشغل بعدد الأشواط، وعدد الحصيات، والتنقل بين المشاعر، وينسى أن روح الحج هو ذكر الله، وفي هذا الحديث كان النبي صلى الله عليه وسلم يكبر مع كل حصاة، فكل حركة في الحج مرتبطة بذكر الله، قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ (البقرة:٢٠٣)، فالحاج الناجح هو الذي يكون قلبه حاضرًا ولسانه رطبًا بذكر الله.

ثانيًا: الدعاء من أعظم مقاصد الحج، العجيب أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتفِ بالرمي، بل كان يقف بعد الجمرة الأولى والثانية طويلًا يدعو ويتضرع، حتى قال بعض العلماء إن زمن الدعاء كان أطول من زمن الرمي نفسه، وهذا يدل على أن المقصود

الأعظم ليس رمي الحصى فحسب، وإنما التوجه إلى الله والانكسار بين يديه، فالحج مدرسة للدعاء قبل أن يكون مدرسة للحركة.

ثالثًا: لا تستعجل في العبادة، فبعض الحجاج يؤدي العبادة بسرعة لينتقل إلى غيرها، أما النبي صلى الله عليه وسلم فكان يتأنى ويطيل الوقوف والدعاء، وفي هذا درس عظيم:

أن العبادة ليست سباقًا لإنهاء الأعمال، وإنما فرصة لامتلاء القلب بالإيمان، فليس المهم كم عملت؟، بل كيف عملت؟.

رابعًا: التضرع من أعظم أسباب القبول، فقد وصفت عائشة رضي الله عنها حال النبي صلى الله عليه وسلم بأنه كان: "يتضرع"، والتضرع هو الانكسار والافتقار والذل بين يدي الله، وهذه من أعظم مقامات العبودية، قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (الأعراف:٥٥)، فكلما ازداد العبد افتقارًا إلى الله ازداد قربًا منه.

خامسًا: الاتباع أدق من مجرد أداء العبادة، فالنبي صلى الله عليه وسلم وقف عند الأولى والثانية ولم يقف عند الثالثة، وهذا يعلمنا أن العبادة تؤدى كما شرعها الله لا كما نراها نحن، فلو كان الوقوف بعد الثالثة مشروعًا لفعله النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا كان الصحابة يتابعون أفعاله بدقة؛ لأن الخير كله في الاتباع.

سادسًا: التوازن بين العمل والدعاء، ففي هذا الموقف جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين: العمل (الرمي)، والذكر (التكبير)، والدعاء (التضرع)، وهذا منهج الإسلام كله، فليس المطلوب العمل بلا دعاء، ولا الدعاء بلا عمل، وإنما الجمع بينهما.

سابعًا: أيام التشريق ليست أيام راحة فقط، فبعض الناس يظن أن أعظم أعمال الحج انتهت بعد يوم النحر، لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يواصل الذكر والرمي والدعاء في أيام التشريق، ولهذا سماها العلماء أيام عبادة وذكر وشكر لله، قال صلى الله عليه وسلم: "أيَّامُ التَّشريقِ أيَّامُ أَكْلٍ وشُربٍ وذِكْرٍ للَّهِ عزَّ وجلَّ" رواه ابن ماجة.

ثامنًا: قيمة اللحظات التي يغفل عنها الناس، في كثير من الأحيان ينشغل الحجاج بالرمي وينصرفون مباشرة، لكن النبي صلى الله عليه وسلم استثمر هذه اللحظات في دعاء طويل، وهذا يعلم المسلم أن أبواب الخير قد تكون في دقائق يغفل عنها كثير من الناس.

تاسعًا: التربية على الصبر في الطاعة، فالوقوف الطويل والدعاء المتواصل يحتاج إلى صبر ومجاهدة، فالحج لا يعلم الإنسان أداء المناسك فقط، بل يعلمه الصبر على العبادة والثبات عليها.

عاشرًا: القلب هو محور الحج، فلو تأملت هذا الحديث لوجدت أن الرمي استغرق لحظات، أما الذكر والدعاء والتضرع فهي أعمال قلبية عظيمة، وكأن النبي صلى الله عليه

وسلم يريد أن يعلم الأمة أن قيمة الحج ليست في انتقال الأقدام فقط، بل في حياة القلوب.

الحادي عشر: استثمار مواسم الخير، النبي صلى الله عليه وسلم كان في أيام عظيمة وأماكن مباركة، فاستثمرها في الدعاء، وهذا يعلم المسلم أن المواسم الفاضلة لا تمر مرورًا عابرًا، بل تُغتنم في زيادة القرب من الله.

الثاني عشر: إعلان الافتقار إلى الله بعد كل انتصار، فرمي الجمرات يرمز إلى مجاهدة الشيطان، ومع ذلك لم يعتمد النبي صلى الله عليه وسلم على عمله، بل وقف يدعو ويتضرع، وفي هذا درس عظيم: أنه كلما وفقك الله للطاعة فازدد افتقارًا إليه، ولا تُعجب بعملك.

أيها الحاج الكريم، وأنت ترمي الجمرات، لا تجعل همك أن تنتهي من الرمي فقط، بل اجعل قلبك حاضرًا مع الله، أكثر من التكبير، وأكثر من الدعاء، وأطل الوقوف بين يدي ربك ما استطعت، فكم من حصاة رُميت ولم تغير صاحبها، وكم من دعوة صادقة خرجت من قلب منكسر فغيّرت حياة صاحبها كلها، فقد علمنا النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف أن الحج ليس مجرد رمي للحجارة، بل هو ذكر لله، ودعاء له، وتضرع بين يديه، وتجديد للعهد معه، ومن تعلم هذا الدرس عاد من الحج وقلبه أقرب إلى الله من يوم خرج من بلده.

الخاتمة

أخي الحاج الكريم، أختي المعتمرة الكريمة، ها أنت اليوم قد عدت إلى أهلك وبيتك، وانقضت أيام الرحلة المباركة، وطويت صفحات من أجمل أيام العمر، وغادرت المشاعر المقدسة التي طالما اشتاقت إليها القلوب، وبقيت الذكريات تسكن الوجدان، وآثار تلك الأيام المباركة محفورة في أعماق الروح، لذا اسأل نفسك يا أخي ويا أختي:

لقد انتهى الحج، ولكن هل انتهت رسائله؟

لقد انتهت المناسك، ولكن هل انتهت دروسها؟

لقد نزعت لباس الإحرام، ولكن هل نزعت من قلبك التعلق بالدنيا؟

لقد توقفت عن التلبية، ولكن هل توقف قلبك عن الاستجابة لأمر الله؟

لقد غادرت عرفات، ولكن هل ما زالت دموع التوبة حاضرة في قلبك؟

لقد أكملت الطواف والسعي، ولكن هل ما زلت تسير إلى الله في كل يوم؟

لقد علمنا الإحرام أن الناس سواسوية أمام الله، فلا يليق بنا بعد الحج أن نتكبر على أحد، وعلمتنا التلبية أن نستجيب لله، فلا يليق بنا بعد الحج أن نتأخر عن أوامره، وعلمنا الطواف أن يكون الله محور حياتنا، فلا نجعل الدنيا بعد ذلك أكبر همنا، وعلمنا السعي أن نبذل الأسباب وأن نتوكل على رب الأرباب، وعلمتنا عرفات الانكسار بين

يدي الله، فلا نأنف من الدعاء والتضرع بعد الحج، وعلمتنا الجمرات أن الشيطان عدو لنا، فلا نفتح له أبواب قلوبنا بعد أن أعلنا الحرب عليه، وعلمنا الحلق والتقصير التواضع والتجرد، فلا نعد إلى الغرور والعجب بعد أن ذقنا لذة العبودية.

أخي الحاج، إن أعظم خسارة أن يعود المسلم من الحج كما ذهب، وأعظم ربح أن يعود بقلب أقرب إلى الله، ولسان أكثر ذكرًا، ونفس أكثر استقامة، وأخلاق أكثر جمالًا، فعلامة الحج المبرور ليست في كثرة ما تروي من القصص، ولا في عدد الصور والذكريات، وإنما في أثر الحج على سلوكك وعبادتك ومعاملتك للناس.

فانظر إلى حالك بعد الحج: هل أصبحت أقرب إلى الصلاة؟، وهل ازددت حبًا للقرآن؟، وهل تحسن خلقك مع أهلك وجيرانك؟، وهل أصبح قلبك أكثر رحمة بالناس؟، وهل أصبحت أكثر حرصًا على الطاعة وأبعد عن المعصية؟، فإن وجدت ذلك فاحمد الله، فإنها من بشائر الخير.

واعلم أن الشيطان قد يرضى منك بالتقصير أثناء الحج إذا كان يعلم أنك ستعود بعده إلى الغفلة، ولذلك كان السلف الصالح يخافون على أنفسهم بعد الطاعة أكثر من خوفهم قبلها، وكانوا يرون أن الثبات بعد العمل من أعظم علامات قبوله، ولهذا لا تجعل الحج محطة عابرة في حياتك، بل اجعله نقطة تحول، وبداية عهد جديد مع الله.

يا أخي، اجعل التلبية التي رددتها في المشاعر شعارًا لحياتك كلها: لبيك إذا دعاك الله إلى الصلاة، لبيك إذا دعاك إلى بر الوالدين، لبيك إذا دعاك إلى الصدق والأمانة والإحسان،

لبيك إذا دعاك إلى ترك الذنوب والشهوات، فالحج الحقيقي هو أن تستمر روح الحج معك بعد عودتك، وتذكر دائمًا أن الطريق إلى الله لا ينتهي عند مغادرة مكة، بل يبدأ منها، فإذا كانت مكة قد علمتك كيف تقترب من الله، فليكن ما بقي من عمرك رحلة مستمرة في هذا القرب.

نسأل الله أن يجعل حجك مبرورًا، وسعيك مشكورًا، وذنبك مغفورًا، وأن يثبتك على طاعته حتى تلقاه، وأن يجعل هذه الدروس نورًا يضيء لك الطريق، وزادًا ينفعك في دنياك وآخرتك، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أخوكم ،،،

عدنان سلمان الدريويش

المستشار الأسري في جمعية التنمية الأسرية بالأحساء

ومركز الطمأنينة بجمعية شمل في المنطقة الشرقية

المراجع

- القرآن الكريم.
- صحيح البخاري، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧م، ط٣، تحقيق د.مصطفى ديب البغا.
- صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
- سنن أبي داود، دار الفكر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.
- سنن الترمذي، أبو عيسى الترمذي، بشار معروف، دار الغرب الإسلامي ١٩٩٦.
- سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.
- صحيح الجامع الصغير وزياداته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.
- سنن النسائي، أبوعبدالرحمن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٩٨٦م .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون ، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١م.
- صحيح الترغيب والترهيب، الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٢١ .
- كتاب الزهد، الامام احمد ابن حنبل، تحقيق عادل مرشد المقدسي، دار الفاروق.

- كتاب المجموع شرح المهذب، الإمام النووي، مطبعة التضامن، القاهرة ١٣٤٤هـ.
- كتاب لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، ابن رجب الحنبلي، دار ابن حزم للطباعة، ١٤٢٤هـ.
- كتاب صحيح ابن خزيمة، ابن خزيمة النيسابوري، المكتب الإسلامي، بيروت.
- السنن الكبرى، البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ.
- كتاب الزهد، ابن أبي الدنيا، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٢٠هـ.
- موقع الدرر السنية الالكتروني.
- موقع برنامج خدمة ضيوف الرحمن الالكتروني.
- موقع نسك الالكتروني.
- موقع وزارة الحج والعمرة السعودي.

ثَلاثُونَ دَرْسًا تَرْبَوِيًّا مُسْتَنْبَطًا
مِنْ مَشَاهِدِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَمَوَاقِفِهِمَا،
جاءَتْ عَلَى شَكْلِ خَوَاطِرَ تَرْبَوِيَّةٍ
وَإِشَارَاتٍ إِيمَانِيَّةٍ، تُسَاعِدُ الحَاجَّ
وَالْمُعْتَمِرَ
عَلَى تجاوُزِ الجَانِبِ الشَّكْلِيِّ لِلْمَنَاسِكِ
إِلَى فَهْمِ مَقَاصِدِهَا، وَاسْتِثْمَار آثَارِهَا
فِي إِصْلَاح النَّفْسِ، وَتَقْوِيَةِ الْإِيمَانِ،
وَتَحْسِينِ الْعَلَاقَةِ بِاللّٰهِ.